موسوعة

الإسلام كما يتجلى في كتاب الله

الكتاب الثاني

مفهوم الإيمان والكفر وثمارهما والمقارنة بينهما

تأليف
علي باپير

دار الحكمة
لندن

ameer.maktab@yahoo.com
/AliBapir /AliBapir /MediaAmeerOffice
www.alibapir.net

مفهوم الإِيمان والكفر
وثمارهما والمقارنة بينهما

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة: الإسلام كما يتجلى في كتاب الله

الكتاب الثاني

مفهوم الإِيمان والكفر وثمارهما والمقارنة بينهما

ameer.maktab@yahoo.com

/AliBapir /AliBapir /MediaAmeerOffice

www.alibapir.net

تأليف

علي باپير

الطبعة الثانية

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

ameer.maktab@yahoo.com

/AliBapir /AliBapir /MediaAmeerOffice

www.alibapir.net

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ
وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ
وَرُسُلِهِۦ . . .﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ameer.maktab@yahoo.com

/AliBapir /AliBapir /MediaAmeerOffice

www.alibapir.net

الإهداء

إلى الذين يَبْتَغون فقه الإسلام بعمقٍ وشمولٍ، كما في كتاب الله العظيم وسنة رسوله الكريم ﷺ ليُجَسِّدوه في حياتهم الشخصية والأُسَريَّة والعامة، ابتغاء رضوان الله سبحانه وتعالى.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

ameer.maktab@yahoo.com

/AliBapir /AliBapir /MediaAmeerOffice

www.alibapir.net

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله العلي القدير، والصلاة والسلام على النبيِّ البشير النذير، محمد وآله الكرام «صحباً وأزواجاً وقرابةً» الذين هم جديرون بكل تكريم وتقدير.

وبعد، فقد ارتأينا إعادة طبع هذه الموسوعة: (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله)، بعد طبعتها الأولى، **(في صورة كتاب في ثمانية مجلدات «موزَّع على أربعة أبواب وسبعة عشر فصلاً»)** في سلسلة كتب مجموعها: اثنا عشر كتاباً، كل كتاب يحتوي على موضوع رئيسي.

والنتيجة:

أصبح توزيع مواضيع الكتاب على الكتب الإثني عشر، في هذه الموسوعة، على الشكل الثاني:

الباب الأول بفصوله الأربعة، والمعنون: **(الإسلام: معرفة صحيحة بالخالق والخلق)** بقي كما هو، وصار:

الكتاب الأول، في هذه الموسوعة.

الباب الثاني بفصوله الستة، والمعنون: **(الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر)** تحول في هذه الموسوعة إلى سبعة كتب، كل كتاب مُخصَّصٌ لبحث موضوع أساس من مواضيع الإيمان، وذلك بعد أن جعلنا الفصل الخامس: **(الإيمان برسل الله وأنبيائه)** فصلين، ففي الأول

منهما: بحثنا موضوع الإيمان بالرسل والأنبياء «عليهم السلام» عموماً، وفي الثاني منهما، تحدَّثنا عن خاتم النبيين «ﷺ» خصوصاً، فصار الباب الثاني في هذه الموسوعة بهذه الصورة:

الكتاب الثاني: مفهوم الإيمان والكفر...

الكتاب الثالث: الإيمان بالله سبحانه وتعالى...

الكتاب الرابع: الإيمان بالملائكة وبالجن.

الكتاب الخامس: الإيمان بكتب الله سبحانه وتعالى.

الكتاب السادس: الإيمان برسل الله وأنبيائه «عليهم الصلاة والسلام».

الكتاب السابع: خاتم النبيين محمد «ﷺ».

الكتاب الثامن: الإيمان باليوم الآخر.

الباب الثالث بفصوله الثلاثة، والمعنون: **(الإسلام: إلتزام جادّ بالشريعة على الصعيدين الفردي والجماعي)** تحول في هذه الموسوعة إلى ثلاثة كتب، بالصورة التالية:

الكتاب التاسع: الإهتداء بهدى الله تعالى..

الكتاب العاشر: إلتزامُ المجتمع بدين الله تعالى...

الكتاب الحادي عشر: تطبيق المجتمع للشريعة...

الباب الرابع بفصوله الأربعة، والمعنون: **(الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم)** بقي على حالِهِ، وصار الكتاب الثاني عشر والأخير، في هذه الموسوعة بالشكل التالي:

الكتاب الثاني عشر: الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعامل صحيح معهم.

وقد راعينا في ترتيب هذه الكتب الإثني عشر «في ثلاثة وستين (٦٣) فصلاً» التسلسل المنطقي المتدرج: إذ الإنسان يحتاج قبل كل شيءٍ، المعرفة

بهذا الوجود، ومحلِّهِ هو في إعرابهِ، فجاء الكتاب الأول: بعنوان: (الإسلام: معرفةٌ صحيحة بالخالق والخلق) تلبيةً لهذا المطلبِ الفطريِّ الأول.

ثم تُنْتِجُ المعرفةُ الصحيحة بالوجود ـ طالما التزم صاحِبُها بمقضياتها المنطقية ـ الإيمان بالله الخالق الرب المالك، وببقية أركان الإيمان الخمسة، فجاءت الكتب: الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن، تحت عنوان: (الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) تحقيقاً لهذا المقصد العظيم، وبياناً لتلك الحقائق الكبرى، التي وضعَ فيها كتاب الله الحكيم النقاط على الحروف، ولم يُحْوِجْنا في إدراكها إلى غيره.

ثم ان الإيمان الصحيح بالله تبارك وتعالى، وببقيَّةِ أركان الإيمان الأساسية، يدفعنا إلى الإلتزام بدين الله القيِّم، وشريعته الحكيمة، فجاءت الكتب: التاسع والعاشر والحادي عشر، تحت العنوان العام: (الإسلام: إلتزامٌ جادٌّ بالشريعة على صعيدي: الفرد والمجتمع) لتوضيح كيفية التزام الفرد والمجتمع والدولة بالشريعة السّمحاء، بهذه العناوين الثلاثة، للكتب الثلاثة:

١ ـ الإهتداء بهدى الله، أو الإلتزام الفردي بشريعة الله تعالى.

٢ ـ إظهار الدين الحق، أو التزام المجتمع بدين الله تعالى: فكراً وشعائرُ وآداباً.

٣ ـ تطبيق المجتمع للشريعة في جميع جوانب الحياة.

ثم أخيراً: بعد المعرفة الصحيحة، والإيمان الراسخ، والإلتزام الجاد بالشريعة، بإمكان المسلمين: أفراداً ومجتمعاً ودولةً، أن يتعاملوا مع الناس: المسلمين وغير المسلمين، على أساس النظرة السَّديدة إليهم، بصورة شرعية صحيحة، بعيدة عن الإفراط والتفريط، وبيان هذا الموضوع تكفّل به الكتاب الأخير، الثاني عشر، والذي جاء بعنوان: (الإسلام نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم).

وفي المُحَصِّلة: بيّنا من خلال هذه الموسوعة ـ بِكُتُبِها الإثني عشر ـ تجلية كتاب الله الحكيم المبارك للإسلام:

١ ـ معرفةً صحيحة بالوجود (الخالق والخلق).

٢ ـ وإيماناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٣ ـ والتزاماً بالشريعة على المستويات الثلاثة: فرداً ومجتمعاً ودولةً.

٤ ـ وتعاملاً صحيحاً مع الناس، على أساس نظرة سديدة تجاههم.

والهدف الأساس من هذا العمل «طبع هذه الموسوعة بهذه الصورة» هو تسهيل وصولها إلى القراء، وتيسير حصولهم على أي موضوع يرغبون فيه منها.

وجديرٌ بالذكر أننا أبقينا «في هذه الطبعة» على أكثرية الإحالات إلى الأبواب والفصول والمباحث والمطالب، على حالها الذي كانت عليها في الطبعة الأولى.

وكذلك أبقينا على كل من هذه العناوين الثلاثة:

١ ـ (مُبَشِّرة حول هذا الكتاب) بعد أن غيَّرناهُ الى: (مُبَشِّرةٌ حول هذه الموسوعة).

٢ ـ (قصة تأليف هذا الكتاب) بعد أن غيَّرناهُ الى: **(قصّة تأليف هذه الموسوعة)** والتي شرحنا فيها: كيفية الشروع بهذا العمل في السجن الأمريكي، وكيفية انبثاق خطة الكتاب في خطوطها العريضة، من آيات سورة الفاتحة السبع المباركات، وسبب تقسيمه إلى أربعة أبواب في سبعة عشر فصلاً.

٣ ـ (المقدمة) والتي غيَّرناها الى: (مقدمة هذه الموسوعة).

وسَنُدْرِجُها في بداية الكتاب الأول من هذه الموسوعة، لارتباطها بكل الكتب الأخرى المضمَّنة لها، ونكتفي بهذا عن تكرار إدراجها في بداية الكتب الأخرى.

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يَسُدَّ بهذا الجهد، ثغراتٍ كثيرة، في فهم كثير من المسلمين لدينهم القيِّم، وأرجو أن تَحْظى هذه الموسوعة، بأن تكون لبنة في بناء صرح المشروع الإسلامي المنشود.

وآمل ألّا يَبْخَل عليَّ القرّاء الكرام، بملاحظاتهم وتنبيهاتهم، وأشكرهم جزيل الشكر مسبقاً.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

١/ رجب ١٤٣٦ هـ
٢٠ نيسان ٢٠١٥م
أربيل /كوردستان ــ العراق

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

توضيحٌ لمفهوم عنوان:
(الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر)

قصدنا بهذا العنوان، والذي يشتمل في هذه الموسوعة على سبعة كتب بهذه العناوين:

الكتاب الثاني: مفهوم الإيمان والكفر، وثمارهما، والمقارنة بينهما.

الكتاب الثالث: الإيمان بالله تعالى.

الكتاب الرابع: الإيمان بالملائكة وبالجن.

الكتاب الخامس: الإيمان بكتب الله تعالى.

الكتاب السادس: الإيمان برسل الله وأنبيائه عليهم السلام.

الكتاب السابع: خاتم النبيين محمد (ﷺ).

الكتاب الثامن: الإيمان باليوم الآخر.

نعم قصدنا بهذا العنوان: أن الإسلام المتجلّي والمتبلور في كتاب الله المبارك، بعد المعرفة الصحيحة بالخالق سبحانه وبالخلق «والتي وضَّحناها في الكتاب الأول» يتكون من الإيمان، بأركانه الخمسة الأساسية: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وهذا يعني أن الإنسان بعد امتلاكه للمعرفة الصحيحة بالوجود «خالقاً وخلقاً» سيتمهد الطريق أمامهُ للإيمان بالله تبارك وتعالى، وببقية الأركان الأخرى للإيمان.

وبما أن الإيمان هو أساس الإسلام ولُبُّه، وروح التعبد لله تعالى ومخُّه، فقد تولّاه كتاب الله الحكيم، العناية الجديرة به، إذ خُصِّصَ لبحث الإيمان بأركانه الخمسة، ـ وخاصة الإيمان بالله «سبحانه وتعالى» والذي هو الأساس في الإيمان، بل والإسلام والتديُّن عامة ـ، أكبر مساحةٍ في كتاب الله الحكيم، بل كلّ آيات كتاب الله المبارك: «قُطْبُ مدارها» الذي تدور حولهُ، هو الإيمان، ونحن اقتداءً بكتاب الله العزيز، خَصَّصْنا أكثرية كتب هذه الموسوعة، والمساحة الأكبر فيها، بموضوع الإيمان بأركانه الخمسة الأساسية.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

تقديم

إنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْـتَعِينُهُ، وَنَسْـتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شرُورِ أَنْفُسِـنَا، وَمِنْ سَيئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْده اللهُ فَلاَ مُضِـلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَن لاَ إلَهَ إلّا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أمَّا بَعْدُ: فإنَّ أَصْدَقَ الحَديث كَلامُ الله، وَخَيْرَ الْهَدِي هدْيُ مُحَمَّد، وَشرَّ الأُمُورِ مُحْدَثاتُها، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَة، وَكُـلَّ بِدْعَةٍ ضَـلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَـلاَلَةٍ فِي النَّـار.

هذا الكتاب هو الكتاب الثاني من سلسلة كتب: (موسوعة: الإسلام كما يتجلى في كتاب الله) وموضوع هذا الكتاب، هو إيضاحُ مفهوم كل من ﴿**الإيمان**﴾ و﴿ٱلْكُفْرِ﴾ وثمارهما المتولدة منهما، ثم المقارنة بين كل من الإيمان والكفر، وثمارهما وآثارهما.

ومن الجليِّ أن الإيمان هو أساس التدين والإلتزام بالإسلام، على الصعيدين الفردي والإجتماعي، وبما أن العلم قبل العمل، والبصر بالطريق والخبرة به، قبل سلوكه، فقد أمر الله الحكيم نبيَّه الكريم محمداً ﷺ باكتساب العلم بتوحيد الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ...﴾ [محمد: ١٩]، اذ لا يُبْنى الإيمانُ والتوحيد الّا على العلم والمعرفة الصحيحة.

وقد قمنا في هذا الكتاب بتجلية معنى الإيمان ومفهومه في كتاب الله، وبيان جذوره ومكوّناته، ثم ثماره وآثاره، ثم على قاعدة: (وبضدها تتبين الأشياء) تطرقنا إلى توضيح مفهوم الكفر، وتسليط الضوء على حقيقته، وجذوره الفكرية والقلبية ومكوّناته الأساسية، وثماره وآثاره.

ثم أجرينا بين الإيمان وثماره من جانب، والكفر وآثاره من جانبٍ آخر، مقارنة، بغية إيضاح وبلورة مفهوم كل منهما أكثر فأكثر...

وإنَّما أفردنا هذا الموضوع «تجلية مفهوم الإيمان» بكتاب مستقل، لأن أركان الإيمان الخمسة التي سَنُفْرِدُ كلاً منها ببحث خاص، لها ارتباط بمفهوم الإيمان، لذا وجب تجلية مفهوم الإيمان، قبل ذكر أركان الإيمان، وذلك حتى لا نضطر لتكرار توضيح مفهوم الإيمان، عند ذكر كل ركنٍ من أركان الإيمان.

٣ رجب ١٤٣٦هـ
٢٢ نيسان ٢٠١٥م
أربيل / كوردستان – العراق

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

تمهيد

يحتوي هذا الكتاب على فصولٍ عشرةٍ، هذه هي عناوينها:

الفصل الأول: مفهوم الإيـمان.

الفصل الثـانـي: مَنْ هو المؤمن؟!

الفصل الثـالث: ما هو الكفر؟

الفصل الرابع: مقارنة بين مُكوِّنات الإيمان ومُكوِّنات الكفر.

الفصل الخامس: تعريف الإيـمان.

الفصل السادس: تعريف الكفر.

الفصل السابع: ثـمار الإيـمان الدنيوية.

الفصل الثامن: نتائجُ الإيـمان وبركاتُهُ الأخروية.

الفصل التاسع: الفرق بين الإيـمان والمؤمن، من جانبٍ، والإسلام والمسلم، من جانبٍ آخر.

الفصل العاشر: سبع مسائل متعلقة بالإيـمان.

ونشرعُ بالبحث عن الإيـمان في الفصل الأول:

الفصل الأول

مـفهوم الإِيمـان

وللتعرُّف على مفهوم الإِيمان في خطوطه العريضة، لِنَتَدَبَّر الآيات المباركات الآتية:

* ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى].

* ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات].

* ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ...﴾ [المجادلة: ٢٢].

* ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ ...﴾ [الحجرات: ٧].

* ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ...﴾ [غافر: ٢٨].

* ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل].

* ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح].

* ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ...﴾ [الفتح: ٤].

* ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة].

* ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة].

* ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ...﴾ [آل عمران: ١٦٧].

* ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات].

* ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ...﴾ [الروم: ٥٦].

* ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ...﴾ [آل عمران: ١٩٣].

* ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ

إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣].

* ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ [المائدة].

والآن لِنُسْلِمَ أَنْفُسَنا إلى هذه الآيات المباركات التي تَتَحدَّث عن الإيمان من مختلف الزوايا، ولنطمئن إلى النَّتيجة التي توصلنا إليها بالنسبة لحقيقة الإيمان، وتُتْحِفُنا هذه الآيات بصدد معرفة الإيمان، الحقائق الخمس الأساسية الآتية، التي سَنَعْرِضُ كلاً منها في مبحثٍ مستقل:

المبحث الأول

الإيـمان لا يُعْرَفُ على حَقيقَتِهِ إلاّ عن طريق الوحي

وتدل على هذه الحقيقة الآية (٥٢) من (الشورى) بوضوح تام، وهذا بيان كيفية دلالتها:

١ ـ يخاطب الله تعالى نبيَّه الأُمِّي الخاتم ﷺ بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ . . .﴾ [الشورى: ٥٢]. أي وهكذا أوحينا إليك بالكيفية المذكورة في الآية السابقة (٥١)، والتي يُبيِّنُ الله تعالى فيها طرق وصور اتصاله بالبشر (الأنبياء): ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ ويُسَمِّي الله تعالى وحيه (روحاً) لأنه هو فعلاً روح حياة البشرية، وكما أن الجسد لا يعيش بلا روح، بل يموت ويَتَعفَّن وُيْنِتنُ[1]، كذلك حياةُ الإنسان لا تستقيم إلّا بالوحي.

٢ ـ ثم يقول تعالى لنبيِّه الخاتم: ﴿. . .مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ. . .﴾ حيث يُبَيِّنُ سبحانه وتعالى أن رسول الله ﷺ ما كان يعلم قبل أن يوحى إليه، لا (الكتاب) ولا (الإيمان)، ويُفْهَمُ من هذه الحقيقة القرآنية أن الإيمان ليس ـ كما يزعم أهل البدع ـ مجرَّدَ المعرفة بالله، أو حتى تعظيمه وإجلاله وخشيته ومحبته! وذلك لأنَّ رسولَ الله ﷺ وهو أرجحُ

(١) أَنتَنَ الشيُ يُنتِنُ فهو مُنتِنٌ، ونَتَنَ يَنْتِنُ نَتْناً فهو نَتِنٌ: خَبُثَتْ رائِحتُهُ. المعجم الوسيط، ص ٩٠٠.

الناس عقلاً، وأسلَمُهم فطرةً، كان قبل أن يُوحى إليه، ويصطفيه الله تعالى ليكون نَبِيَّه الخاتم ورسولَه الأعظم إلى البشرية كافة، كان بلا شك عارفاً بالله تبارك وتعالى: رباً وخالِقاً، ومُحِباً له، وخاشياً منه، ومُعظِّماً له، وتحنُّثُهُ في غار (حِراء) أياماً وأسابيع، دليل قاطع على ذلك، ولكن بالرغم من كل هذا، ينفي الله تعالى عن (محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب) قبل إيحائِه إليه، عِلْمَه بكلٍ من الكتاب والإِيمان! إذن: فالإِيمان بالله تعالى شيءٌ آخر غير تلك الأشياء، وهو لا يُعرف إلّا عن طريق الوحي، ولهذا قدَّم الله تعالى نفي دراية (محمد) بالكتاب على نفي درايته بالإِيمان، لأن الإِيمان لا يُعْرَف إلّا من خلال الوحي المتمثِّل في كتاب الله!

٣ ـ ثم يقول تعالى: ﴿...وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ وتسمية كتاب الله المتُضَمِّن لوحيه (نوراً) بعد تسميته (روحاً)، تَنْبيهٌ على أن نورَ الله المعنوي، يُنيرُ قُلوبَ الناس وعقولَهم بالعلم الصحيح والهداية، كما أن الضياءَ والنورَ الحِسِّيَّ، يُنيرُ لهم الطريقَ المادِّيَّ الملموسَ، ويدل قوله تعالى: ﴿...نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ على أن الهداية للإِيمان تشريعاً وتكويناً، إنـَّما هو من الله تعالى فحسب، وهذا ما سنبينه فيما بعد.

٤ ـ ثم يخاطب الله تعالى نَبيَّه، بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي إنك بعد أن لم تكن مهتدياً في نفسك ـ بسبب عدم الوحي ـ فالآن أصبحت بفضل الوحي، لا مهتدياً في نفسك فَحَسْبُ، بل وهادياً لغيرك أيضاً، فتهدي الناس إلى طريق الله الواضح المستقيم، طريق الإِيمان بالله والعبودية له، وخلاصة ما يُفهم من هذه الآية المباركة: أن الإِيمان لا يعرف إلّا بالوحي الذي ينزله الله تعالى على أنبيائِه ـ عَلَيهِمُ الصَّلاةُ وَالسَلام ـ ولهذا كان الأنبياء حتى خاتمهم وسيدهم وأفضلهم عليه وعليهم الصلاة والسلام، لا يعرفون الإِيمان المطلوب شرعاً، قبل ورود الوحي إليهم، وإنارته لقلوبهم الطاهرة بنوره وهدايته.

وهذه الحقيقة حقيقة عظيمة جداً في مجال معرفة الإِيمان، لذا ينبغي لنا أن نَسْتَحْضِرَها إلى أن نصل في مراحل بَحْثَنا هذا إلى نهايتها.

المبحث الثـاني

مَحَـلُّ الإِيمان الذي يسـتقرُّ فيه في كيان الإنسان، هو قلبه

وتـدلُّ على هذه الحقيقـة كلٌّ من:

١ ـ الآيـة (١٤) من (الحجرات).

٢ ـ الآيـة (٢٢) من (المجادلة).

٣ ـ الآيـة (١٠٦) من (النحل).

٤ ـ الآيـة (٢٨) من (غافر).

٥ ـ الآيـة (٢٥) من (الفتح).

٦ ـ الآيـة (٤) منها أيضاً.

٧ ـ الآيـة (٧) من (الحجرات).

والآن إِليك بيانَ كيفية دلالة الآيات المذكـورة، على أن (القلب) هو محـلُّ الإيـمان:

١) أما في الآية (١٤) من (الحجرات) فبعد أن يحكي سبحانه وتعالى قولَ الأعراب بإدِّعائهم الإيمانَ، يأمر رسولَ الله ﷺ أن ينهاهم عن ذلك الإدِّعاء، ويُخبِرَهم أنهم لم يصبحوا مؤمنين بعد، لِذا فَلْيقولوا (أَسْلَمْنا) بدل (آمنّا)، لِئَلاَّ يُضيفوا إلى ذنب عدم الإيمان، الكَذِبَ أيضاً! ثم يقول تعالى معـلِّـلاً تـوجيـه ذلـك الـقـول لأولـئـك الأعـراب: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي

قُلُوبِكُمْۖ . . .﴾، أي: فطالما أن الإِيمان لم يستقرَّ في قلوبكم، بل لم يَدْخُلْها أصلاً، فلا تدَّعوه ادِّعاءً.

وهذا واضح في أن محلَّ الإِيمان في كينونة الإنسان، هو القلب.

٢) وفي الآية (٢٢) من (المجادلة) وفي معرض المدح لقوم متجرِّدين لله تعالى ومُخْلصين في تديُّنهم له ـ إذ هم بسبب إيمانهم بالله ولقائه في اليوم الآخر، قطعوا كل الصِّلات والأواصر مع الذين يحادّون ويضادّون الله ورسوله، وإن كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ـ يُعَرِّفهم سبحانه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾. أي ثَبَّتهُ ورَسَّخَهُ فيها، وبناءً عليه: فالقلب هو الموضِعُ الذي يثبت فيه الإِيمانُ ويستقِرُّ.

٣) وفي الآية (١٠٦) من (النّحل) وفي سياق الحديث عن المؤمن الذي يَتَعَرَّضُ للأذى الشديد، ثم تحت الضغط الشديد يَتفَوَّه بكلمة الكفر، نجاةً بنفسه من القتل أو الأذى الذي لا يُطيقه، يشترط سبحانه في عدم ضرر التفوُّه بالكفر لصاحبه المُكْرَه، أن يكون قَلْبُهُ مطمئناً بالإيمان: ﴿. . . إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ فمحل الإِيمان إذن هو القلب، وتدل الآية بالإضافة إلى هذا، على أن التكلُّم بالكفر تحت الضغط والإكراه الشديد لا يُنافي الإِيمان، بل هذه رخصة أعطاها الله لعباده، ليُجَنِّبوا أَنْفُسَهم القَتْلَ أو الأذى الشديدَ والضَّرَر البالِغَ.

٤) وفي الآية (٢٨) من (غافر) وفي مقام ثناء الله الكريم على موقف: ﴿رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ كان قد دافع عن (موسى) عَلَيْهِ السَّلَامُ أمام تهديدات فرعون وتَبَجُّحاته وإرهابه، يصف الله ذلك المؤمن الجريء بقوله: ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ ومن الواضح أن كتم الإِيمان وإخفاءه لا يمكن إلّا إذا كان في محل مَخْفيّ مَسْتور وهو القلب، والآية دليل على أن

الإيمان يَظَلُّ إيـماناً، وإنْ كُتِمَ وأُخْفِيَ، في ظرفٍ طاريءٍ استثنائي، ولكن يجب أن يُعْلِنُ عنه صاحِبُهُ وقْتَ الحاجة، كما فعل مؤمن آل فرعون، وإلّا فَأنّى لصاحبه إثبات وجوده وامتلاكه إياه!

٥) وفي الآية (٢٥) من (الفتح) يُعَلّلُ سبحانه (فتح مكة) فتحاً سِلْمياً نسبياً لا قتال فيه، بقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي كان هناك في مكة مجموعة من أهل الإيمان رجال ونساءٌ، وكان المسلمون في المدينة لا يشعرون بوجودهم بسبب إخفائهم إيمانهم، ولو حدث قتال فلربَّما تضَّرر بعضُ أولئك، ومن ثمَّ اغتمَّ المسلمون لمصابهم: ﴿...أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾، لِذا من أجل عدم حدوث كل ذلك، جعل الله الحكيم (فتح مكة) سِلْمياً، كما يقول المثل: (ومن أجل عين ألف عين تكرم).

ثم يقول تعالى: ﴿...لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي إنـما فعل الله تعالى كلَّ ذلك رحمةً بأولئك المؤمنين والمؤمنات الكاتمين لإيمانهم، وإلّا فلو أن أولئك المؤمنين والمؤمنات تـميّزوا وانفصلوا عن الكفار، لفعل الله الحكيم غير ما جرى، تعذيباً لأهل الكفر المستحقين لعذاب الله.

والآية الكريمة واضحة الدلالة على أن:

أولئك الرجال والنساء الـمؤمنين الـمتواجدين في (مكة) وداخل كيان الكفر وتحت سلطتهم، كانوا يُخْفون إيـمانَهم وإسلامَهُمْ، خوفاً على أنفسهم من سطوة وإرهاب أهل الكفر، ولهذا لم يعلم الـمسلمون بوجودهم، وهذا يُفْهَمُ منه شيئان:

أولاً: أَن محلَّ الإيـمان هو القَلْبُ وباطِنُ الإنسان، وإلّا كيف يَتَسنَّى لهُ سَتْرهُ وإخفاؤه!

ثانياً: أَن أهل الإيمان قد يَضْطَرّون في ظروف استثنائية قاهرة، إلى

إخفاءِ إيمانهم، من دون أن يضرهم ذلك التَخَفِّي والتَّكَتُّم شيئاً.

٦) وفي الآية (٤) من (الفتح) أيضاً، يذكر الله تعالى أنه أنزل (السكينة) في قلوب المؤمنين كي يزدادوا إيماناً، ويُضيفوا إلى إيمانهم زيادة أخرى نتيجة نزول السكينة على قلوبهم، وهذا يفهم منه بوضوح أن محل الإِيمان هو القلب، بدليل أن السكينة الرّبانية نزلت فيه وزادت الإِيمان المستقر فيه.

٧) وفي الآية (٧) من (الحجرات) يبين الله تعالى أنه حَبَّبَ الإِيمانَ إلى المؤمنين وزيَّنَهُ في قلوبهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ. . .﴾، إذن: فالإِيمان المحبَّب إلى المؤمنين والمزيَّن، إنما هو في قلوبهم.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الثالث

الإيمان يزداد ويَنْمو بكل ما يُعَدُّ طاعةً لله تبارك وتعالى

وتدل على هذه الحقيقة مجموعة آيات مباركات، منها:

١ ـ الآية (٤) من (الفتح) والتي أدرجناها سابقاً، حيث جعلت السكينة سبباً لزيادة الإيمان.

٢ ـ الآية (١٢٤) من (التوبة) والتي أدرجت أيضاً في السابق، وجعلت فيها نزول سورة من سور القرآن سبباً لزيادة الإيمان والسرور.

٣ ـ الآية (٢) من (الأنفال): ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا . . .﴾، حيث جُعِلَتْ تلاوة الآيات على أهل الإيمان سبباً لزيادة إيمانهم.

٤ ـ الآية (١٧٣) من (آل عمران): ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾، وهنا جُعِلَ سِماعُ تهديد الأعداء لأهل الإيمان، سبباً لزيادة إيمانهم، وذلك كالسَّيفِ الأصيل الذي لا يزيده الإستعمالُ في القطع، إلّا صقلاً ومَضاءً!

٥ ـ الآية (٢٢) من (الأحزاب): ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾، نعم فمن كان راسخ القدم في الأزمات وأمام الشدائد، ينمو ويزداد إيمانه نتيجة ذلك، كما يقوى البَدَنُ ويَشْتَدُّ بالعمل أو بالتمارين الرياضية الشاقة!

وعليه: فزيادَةُ الإيـمان ونـموُّه وتكامُلُه بسبب الطاعة، حقيقة أخرى من الحقائق التي تُضِيءُ لنا ماهية الإِيـمان.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الـرابع

أعمال الإسلام الظاهرة والإلتزام بالشريعة، تُسَمَّى إيماناً

وهذه حقيقة عظيمة أخرى، من الحقائق التي تُعْرِّف بنا الإِيـمانَ، وُتوَضِّحُ لنا حقيقته الشرعية، وتدل على هذه الحقيقة آيات كثيرة، منها:

١ ـ الآيتان (٦٥، ٦٦) من (التوبة).

٢ ـ الآية (١٦٧) من (آل عمران).

٣ ـ الآية (١٤٣) من (البقرة).

٤ ـ الآية (٥) من (المائدة).

وأما كيفية دلالة هذه الآيات والتي أدرجناها في السابق، على أن الإلتزامَ الظاهِرَ بالشريعة والقيامَ بأعمال الإسلام، يُسَمَّى ويُعْتَبَرُ إيماناً، فهي كالآتـي:

١ ـ أما الآيتان (٦٥، ٦٦) من (التوبة) واللتان تُحَدّثان عن جماعة من المنافقين الذين كانوا عند عودة جيش الإسلام من (تبوك) بقيادة النبـي ﷺ يستهزؤون بالإسلام والمسلمين، ولما وصل خبرهم إلى رسول الله ﷺ وحاسبهم، برّروا موقِفَهم ذاك بأنهم إنما قالوا ما قالوا على سبيل اللعب والمزاح فقط، تخفيفاً لعناء الطريق! ولكن الله الحكيم الخبير العليم بذات الصدور، حكم عليهم من جراء فعلتهم تلك، واعتذارهم الذي كان

أقبح من ذنبهم، بأنهم كفروا بعد إيمانهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾...﴾ **والشاهد في الآيتين هو:**

أن المنافقين ما كانوا يملكون الإيمان لا قبل الإستهزاء بالإسلام واعتذارهم القبيح، ولا بعدهما، لذا فليس المقصود بقوله تعالى: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، أي قد خرجتم من (الإيمان) المطلوب شرعاً، بل المقصود به هو: إنكم قد نَقَضْتُمْ إدّعاءَكُمْ الظاهريَّ للإيمان، والذي كنتم تُدَعّمُونَهُ[١] ببعض أعمال الإسلام الظاهرة، والتي منها خروجهم مع رسول الله ﷺ إلى غزوة (تبوك) مُكْرَهين وعلى مضضٍ، تَسَتُّراً على نفاقهم، أو طمعاً في الغنيمة!

فالإلتزام الظاهري بالإسلام إذن يُسمَّى إيماناً، ولكن ما لم يرافِقْهُ الإيمانُ القلبيُّ الباطني، فلا يُعْتَبَرُ ذلك الإيمان الحقيقي المطلوب شرعاً، ولهذا قال سبحانه: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، فأضاف الإيمان إليهم لأن ذلك النوع من الإيمان، إيمان ظاهري سطحي، لا يفيد صاحِبَه شيئاً فيما بينه وبين الله وفي الآخرة.

وكذلك أضاف الله تعالى الإسلامَ، إلى كلّ من (المنافقين، والأعراب) المتظاهرين بالإسلام والمُدَّعين له، من دون أن يكون لهم حظٌّ في حقيقته الشرعية التي هي مُرادِفَةٌ للإيمان أو فوقه، كما سنبين ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى، حيث قال تعالى عن المنافقين: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَىٰهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة]، وقال عن الأعراب: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم

---

(١) دَعَمَهُ دَعْماً: أَسْنَدَهُ بشيء يَمْنَعُهُ من السقوط، ودعَّمَهُ: قوّاه وثبَّتَهُ، المعجم الوسيط، ص ٢٨٦.

بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات].

٢ ـ وأما الآية (١٦٧) من (آل عمران) والتي يتحدث فيها رب العزة سبحانه وتعالى عن المنافقين الذين تَخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة (أحد) أو تخاذلوا عنه، ورفضوا المشاركة في القتال، وإن كان كدفاع عن الأرض والعِرْض: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ. . .﴾ [آل عمران: ١٦٧]، يصف سبحانه وتعالى أولئك الجبناء المتخاذلين بقوله: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ والمقصود بكلمة (الإيمان) هنا ليس هو الإيمان الشرعي الحقيقي، وذلك لأن المنافقين ما كانوا يمتلكون ذلك النوع من الإيمان، لا قبل القتال ودعوتهم إليه، ولا بعده، إذن: فالمقصود هنا أيضاً بكلمة (الإيمان) هو الإيمان الشكلي الظاهري المُتَمثِّل في القيام ببعض أعمال الإسلام الظاهرة، وإنما اعْتُبِرَ المنافقون في هذه الحالة ـ أي حالة رفضهم المشاركة في القتال ـ أقرب للكفر منهم من الإيمان، لأنهم بموقفهم المتخاذل المذكور، أوهنوا حتى ذلك الإلتزام، وذلك الموقف كان يتمثل في عدم مشاركتهم للقتال، لا جهاداً في سبيل الله، ولا حتى دفاعاً عن أرضهم وعرضهم!!

٣ ـ وفي الآية (١٤٣) من (البقرة) والتي تتحدث عن مسألة تحول القبلة من (المسجد الأقصى) إلى (المسجد الحرام)، يقول تعالى: ﴿. . .وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: إن الله تعالى لا يضيع صلواتكم التي صلّيتموها متوجهين للقبلة السابقة (المسجد الأقصى)، وإنما بيّن سبحانه هذه الحقيقة لما خاف المسلمون من ضياع أجر صلواتهم السابقة، فَطَمْأَنهم المولى الكريم من هذا الجانب.

أَجَل: فقد سمَّى الله تعالى (الصلاةَ) إيماناً، وهي عمل ظاهريٌّ، وبالإضافة إلى دلالة السياق، فالعلماء مُجْمِعون على أن المقصود بكلمة (إيمانكم) هنا هو الصلاة[١].

---

(١) قال البخاري في صحيحه تحت عنوان: (٣١ - باب الصلاة من الإيمان)، (وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣] ـ=

٤ ـ وكذلك في الآية (٥) من (المائدة) والتـي يُبَيِّنُ الله تعالى فيها حِلِّيَّةَ الطيبات كُلِّها، وكذلك النساء العفائف من أهل الإيمان ومن أهل الكتاب، بشرط إعطائهن مهورهن، وبشرط اتصاف الرجال بالعِفَّةِ وتَجنُّب الزِّنى وعدم اتخاذ الخليلات (الصديقات)، ثم يقول تعالى: ﴿. . .وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، ومن الجَليِّ أن المقصود بـ(الإيمان) هنا هو العمل بمقتضى الشريعة في مجال الحلال والحرام والمآكل والمناكح ـ وكذلك في كل المجالات الأخرى، ولكن المقصود هنا ما ذكر في الآية، وهي المآكل والمناكح ـ، والدليل على أن المقصود بالإيمان في الآية هو ما ذكرنا، بالإضافة إلى دلالة السياق، هو أنه لم يذكر في الآية الكريمة والآيات السابقة لها سوى ما ذكرنا.

ويكون معنى الكفر بالإيمان (ومن يكفر بالإيمان) حينئذ، عدَمَ الإلتزام بالشريعة وحلالها وحرامها، وإذا كان عدم الإلتزام بالشريعة وأحكامها كفراً، فعكسه، وهو الإلتزامُ والطاعـةُ، إيـمانٌ.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

= يعني صلاتكم عند البيت. ثم أورد هذا الحديث: عن البراء: أن النبيَّ ﷺ كان أول ما قدِمَ المدينةَ، نزل على أجداده أو قال، أَخوالِهِ من الأنصار، وأنه صلّى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يُعْجِبُه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاّها صلاة العصر، وصلى معه قومه، فخرج رجل ممن صلى معه، فَمَرَّ على مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صَلَّيتُ مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكة، فَداروا كما هم قِبَلَ البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قِبَلَ بيت المقدس وأهل الكتاب، فلّما ولَّى وجهه قِبَلَ البيت، أنكروا ذلك.

قال زهير: حدثنا أبو إسحاق عن البراء في حديثه هذا: أنه مات على القبلة قبل أن تُحوَّل رجالٌ وقُتِلوا، فلم نَدرِ ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة ـ ١٤٣] (صحيح البخاري): ٤٠.

المبحث الخـامس

الإِيمان وإِن كان الإنسان يَكْسِبُهُ بنفسه، ولكن لا يتيسَّرُ له إلّا بتوفيق الله وتيسيره

وهذه حقيقة أخرى من حقائق الإِيمان، وهي تُفهم من آيات كثيرة، منها:

١ ـ الآية (١٧) من (الحجرات).

٢ ـ الآية (٥٦) من (الروم).

٣ ـ الآية (١٩٣) من (آل عمران).

وهذه كيفية دلالة هذه الآيات على ما ذكرنا، باختصار وقد أدرجنا الآيات المباركات الثلاث في السابق:

١ ـ أما في الآية (١٧) من (الحجرات) فَيُخاطِبُ الله تعالى نَبَّينا (محمداً) صلى الله تعالى عليه وسلم مُبَيِّناً له موقِفَ الأعراب المتظاهرين بالإسلام، بقوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي يمَنُّون عليك بسبب إسلامهم الظاهري السطحي: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾ أي: فانْهَهُمْ عن المَنِّ عليك بسبب إسلامهم، وقلْ لهم: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: بل لله حق المِنّة عليكم، ولكن ليس بسبب إسلامكم الشكليِّ، بل بسبب هدايته لكم للإيمان، إن كنتم صادقين في إيمانكم، ولم يكن مجرد ادِّعاءٍ فارغ !!

إذن: فالإيـمان نعمةٌ من الله، يُعينُ عِبادَه عليه ويهديهم إليه.

٢ ـ وفي الآية (٥٦) من (الروم) وفي معرض ذكر موقف المنكرين للبعث والنشور، عندما يُحْيَوْنَ ويشاهِدون عياناً ما أنكروه في الدنيا، ثم دَهْشَتِهِمْ وحَيْرتهم في ذلك اليوم الرهيب الذي لم يَحسِبوا له حساباً، وإقسامِهِمْ مِنْ فَرْطِ الحيـرة والدهشة: أنـَّهم لم يَلْبَثوا في حياتهم الدنيوية سوى ساعة!

فَيُبَيِّنُ الله تبارك وتعالى موقف أهل العلم والإيمان البصير الـمُتَّزن بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾، والشاهد في الآية المباركة هو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ حيث اعتبـر الله تعالى كلاً من العلم ـ والذي يقصد به العلم المأخوذ من الوحي، لأن هذا النوع من العلم هو الذي يَعْرِفُ به الإنسانُ قضايا الغيب والتـي منها قضية مجيء الساعة الحتمي ـ والإيمان، بأنَّهما أُعْطِيا وَوُهِبا لأهل العلم وَالإيمان، ومن المعلوم أنه ليس المُعْطي والواهِب لهما، سوى الله تبارك وتعالى.

٣ ـ وفي الآية (١٩٣) من (آل عمران) وفي معرض الحديث عن عباد الله العقلاء الذاكرين المتفكرين المُدرِكين لحكمة الخلق، وفي خِضَمِّ دعائهم الحار، يقول تعالى على لسانهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ﴾، وعليه:

فلم يكن أولوا الألباب يعرفون الإيمان، إلى أن ناداهم المنادي، وهو رسول الله ﷺ إليه، وفهَّمهم إياه.

وجدير بالذكر ـ وحسبما يَبْدو لنا من الآيات المباركات ـ أن توفيق الله تعالى وهدايته وتيسيره في مجال الإيمان لعبادِهِ، يتمثَّل في شيئين:

أولاً: أن الله تعالى هو الذي بيَّن من خلال وحيه الـمُنَـزَّلِ إلـى نَبيّه المرسل، الإِيمانَ، وما يُصْبِحُ به الإنسانُ مؤمناً.

ثانياً: وأن الله تعالـى هو الذي يعين الـمؤمنين على الإِيـمان ويُيَسِّرُهُ لهم، وبناءً عليه: فالله تعالى هو الذي يهدي الإنسانَ للإِيـمان بوحيه، ويُعِينُه على اكتسابه بكَرَمِـهِ ولطـفه وفضـله.

والآن لِنَتحوّل إلـى الإجابة عن سؤال: (من هو الـمؤمن؟!) في الفصل الثـانـي بإذن الله.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

الفصل الثاني

من هو المؤمن؟!

وللتعرُّف على الإنسـان المؤمن، أو ما يصبح به الإنسان مؤمناً عند الله تبارك وتعـالى، لِنتَدَبَّرْ هذه الآيات:

* ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال].

* ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات].

* ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور].

* ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

* ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [النور].

* ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة].

* ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات].

ونأخذ من هذه الآيات المباركات الحقائق السَّبع الآتية، بصدد معرفة الإنسان المؤمن والصفات التي تُشْتَرَطُ فيه لاعتباره مؤمناً، ولكن قبل أن نشرع بِسَرْدِ الحقائق السَّبع التي تجود بها علينا الآياتُ المدرجة أعلاه، في سبعة مباحث أَوَدُّ أن أُنبِّه على أن كلمة (إنَّما) والتي ابتدأت بها خَمْسُ آيات مِمّا أدرجناها، تسمى في اللغة العربية بـ(أَداةِ الحَصْرِ والإثبات) وذلك لأنها إذا دخلت على جملة، أثبَتَتْ الحكم الذي ورد فيها لمنْ يتعلَّق به، وتَحصِرُه فيه بحيث لا يشارِكُه فيه غيره.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الأول

المؤمنون هم الذين ترتجف قلوبهم عند ذكر الله، ويزدادون إيماناً بِسَماعِ آياته، ويعتمدون على الله تعالـى وحده

وتدل على هذه الصفات الثلاث، والتي اشترطت فيمن يُعَدُّ مؤمناً، الآية (٢) من (الأنفال) بجلاءٍ، وهذه الصفات كلها قلبية باطنية خفيـة، ومن الواضح أن أول ما يُثْمِرُهُ الإيـمانُ المُستقِرُّ في القلب، هو تنوير باطن الإنسان وتعميره، إذ ليس الظّاهر سوى ظِلِّ الباطن وانعكاسه.

وهذا شرح مختصر لكل من هذه الصفات الثلاث:

١ ـ أما قولـه تعـالـى: ﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ فـالـوَجَـلُ[1] هـو الإضـطـراب والإرتجاف خوفاً وحياءً وهيبةً وخشيةً من الله تعالى وإجلالاً وتعظيماً له، وعجيب أمر من يدَّعي الإيمانَ بالله ثم لا يقشعرُّ جِلْدُه، ولا يرتجف قَلْبهُ لذكر الله على الأقل مرات وفي حالات خاصة، مثل: الإستماع لتلاوة كتابه، ثم تراه يخشع وتأخذُهُ القشعريرة، عند لقاءِ بعض المخلوقين من البشر، هم بشر مثله سواء بسواءٍ!

٢ ـ وأما قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ فالمقصود به هو التفاعل مع كلام الله المبارك، وَمنْ تفكَّر في شأن كلام الله، ثم تدبَّره، فلا بُدَّ من أن يزداد إيـمـاناً، ومن الـواضـح أن تـأثُر الإنـسـان بكـلام الله تـلاوة

(١) المعجم الوسيط، ص١٠١٤.

وسَماعاً، إنَّما يكون بقدر إيمانه وقربه من الله، أي كلَّما ازداد الإنسان إيماناً، كلما ازداد تأثُّره بكلام الله تعالى.

٣ ـ وأما قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: إن المؤمنين هم الذين يعتمدون على ربهم وحده، والتوكل على الله هو أن تُوكِلَ إليه أمورَك من قرارة نفسك، ثم تستيقن بأنه لن يضيعك أبداً، وأنه يدبّر أمورك ويَتَوَلّاك ويرعاك، بصورة لا تَفْطِنُ لها أبداً، وأن تطمئن بأن ما يفعله هو لك، لا تقوم به أنت بنفسك، ولو أعانك الجن والإنس جميعاً، كما قال تعالى بهذا الصدد: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ الطلاق، وإنما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ بعد قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ كي يستيقن العَبْدُ المتوكِّلُ على ربه، أن الله تعالى سَيُتِمُّ أمرَه لا محالة، ثم قال: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ كي لا ييأس العبد من تدبير ربه الحكيم، وإن طالت المدة، وما يُدْريه فلعلَّ في إطالة المدة التي هو ينتظر فيها الفَرَجَ وبُلوغَ المرام، حِكماً وفوائِدَ، ومِنَحاً ربّانيةً ومواهب رحمانية، ما هو خيرٌ له في الدنيا والآخرة، مما هو بانتظاره[(١)]!

ومن الواضح أن التوكُّل على الله تعالى لا يعني تركَ الأسباب، لأن التوكل عمل القلب وعمل القلب، ليس بديلاً عن عمل البدن وحركة الجوارح.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) وهكذا كان بقائي في سجن (كروبر) الأَمريكي، والحمد لله رب العالمين. كتبتُهُ في: ٢٠١٤/٤/١.

المبحث الثاني

المؤمنـون هم الذيـن يقيمـون الصـلاة، ويُنْفِقون مما رزقهم الله تعالـى

وتَدلُّ على اشتراط إقامة الصلاة والإِنفاق في سبيل الله ـ ومنه الزكاة ـ في أهل الإيـمان، لاعتبارهم مؤمنين: الآيَة (٣) من (الأنفال).

والصلاة تتجلَّى فيها عبودية العبد لربه بأجلى صورها، بما تشتمل عليه من القيام لله، وذكره وتلاوة كتابه، والركوع والسجود، وبِما فيها من ذكر وتسبيح وتحميد وتعظيم لله تعالى. . .الخ، كما أن الإِنفاقَ مُجلِّي شَفَقةِ العبد على خلق الله، وبِرِّه بـهم وإحسانه إليهم، وإنـما أُخِّر ذكر الصلاة والإِنفاق عن الأوصاف الثلاثة السابقة، لأن أعمال القلب هي أساس أعمال الجوارح ورُوحُها، ولهذا لا تكون الصلاة والإِنفاق على حقيقتهما المطلوبة، إلّا إذا صدرا من قلبٍ ازدانت بالصفات الثلاث المذكورة.

هذا واعتبـر كثيـرٌ من العلماء، كُلّاً من إقامَة الصلاة وإيتاء الزكاة، شرطاً لاعتبار الإنسان مؤمناً، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ. . .﴾ [التوبة: ١١]، والآية تأتي في سياق الحديث عن المشركين، حيث اشترط الله لاعتبار المشركين إخواناً في الدين لأهل الإيـمان، ثلاثة شروط هي:

أ ـ تابوا (أي رجعـوا عن الشرك والكفر إلى التوحيد والإيـمان).

ب ـ أقاموا الصلاة.

ج - آتـوا الزكـاة.

ويفهم من الآية بوضوح، أن من لم يتصف بـهذه الصفات الثلاث معاً ومجتمعة، فليس أخاً في الدين للمسلمين!

وَعَقَّب الله تعالى على ذكر أصحاب الأوصاف الخمسة السـالفة، بـقـولـه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾﴾ وهذا واضح الدلالة على أن من لم يتصف بهذه الصفات، فلا يَحْظى بهذه الوعود!

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الثالث

المؤمنون هم الذين لا يعرف الرَّيبُ الطريقَ إلى إيمانهم اليقيني بالله ورسوله، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله

وتدل على هذين الوصفين، بل تصرح بهما: الآية (١٥) من (الحجرات).

وإنما عرّف الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ لأن الإيمان بالله تعالى خالقاً ورباً ومالكاً وإلهاً، والإيمان بمحمد نبياً ورسولاً، ما لم يكن ثابتاً وراسخاً، وبعيداً عن الشك والريب، فلا يعتبرُ الإيمانَ المَطْلوبَ الذي يُنجي صاحِبَهُ، والريب هو أدنى الشك[1]، ولهذا قال تعالى في وصف كتابه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة]، أي ليس فيه أقل مقدار من الشك، سواء من جهة كونه من الله، أو من جهة كونه حقاً وصواباً.

وأما الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، فمعلوم أن منْ اتَّصف بالإيمان اليقينيِّ الثابِتِ الراسخ البعيد عن الإرتياب والتردُّد، هانَ عليه والله العظيم، بَذْلُ النَّفْس والنَّفيس في سبيل الله العليِّ العظيم، من أجل رفع راية دينه، وهل يبخل على الله بشيء، مَنْ عَرَف الله بحقٍ وعَبَده بحقٍ؟!

كلاّ والله الذي لا إله إلّا هو!

---

(١) الرَّيبُ: الظنُّ والشكُّ والتُّهمة. المعجم الوسيط. ص ٣٨٤.

وقوله تعالى في التعقيب على هذين الوصفين: ﴿...أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، يعني: أنَّ منْ لم يكن متصفاً بهذين الوصفين كليهما معاً، فليس صادقاً في إيمانه وذلك لأن تعبير: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ يفيد حصر الصدق في الموصوفين بالوصفين المذكورين، وكذلك تدّل على هذه الحقيقة أوضح الدلالة: الآية (١١١) من (التوبة).

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الرابع

المؤمنون هم الذين لديهم الإستعداد المطلق لمعرفة أحكام الله وقبولها، ثم الإلتزام بها وتنفيذها

وهذه الحقيقة صرحت بها الآية: (٥١) من (النور)، حيث يحصر الله تعالى الإيمان في المؤمنين الذين لا قولَ لهم أمام دعوة كتاب الله وسنة رسوله إياهم إلى حكم الله، إلّا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١﴾ والمقصود بقوله: ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: إذا دعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وكلمة (سَمِعْنَا) تعني: الإستعداد التام لمعرفة الحق المُنزَّل وقبوله، كما أن كلمة (أطعنا) تعني الإستعداد التام للطاعة والتطبيق والإلتزام.

وقوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ يفيد حصر الفلاح في أولئك المذكورين، والمعنى: لا مفلح إلّا أولئك.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الخامس

المؤمنون هم الذين عِلاوةً على الإِيمان بالله ورسوله، يلتزمون بأوامر القيادة دَوْماً، وخاصةً في المُلِمّات وعند الحوادث الجسام

وهذه الحقيقة بَيَّنَتْها الآية (٦٢) من (النور) حيث يَحْصِرُ الله تعالى امتلاك الإِيمان فيمن يؤمنون بالله ورسوله ويلتزمون بأوامر الرسول ﷺ ـ أو من ينوب عنه ـ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ والمقصود بكلمة (أَمْرٍ جَامِعٍ) هو كل قضية مهمة ومصيرية تحتاج إلى مشاورة، وإلى استنفار وحشد الطاقات كلِّها، وخاصة القضايا المتعلقة بالأمن والحرب والسلم.

وواضحٌ أن الإلتفاف حول القيادة في المُلِمّات وعند القضايا المصيرية، وامْتِثال أوامرها، وعدم الإبتعاد والذَّهاب هنا وهناك بدون إذنها، ليس شأناً خاصاً بزمن رسول الله ﷺ بل هو عام لكل الأزمنة ولكل التجمعات والمجتمعات الإسلامية التي تَسْلُكُ مَسْلَك رسول الله ﷺ، وذلك ككل الأحكام الأخرى التي نزلت في حالة خطاب الله لرسوله، ولم تدل قرينة واضحة على أنها خاصة برسول الله ﷺ كإحدى خصائصه النبوية، فمثلاً قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ [الطلاق]، حكمه عام للنبي ﷺ ولِلأُمَّةِ من بعده، ولكن

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨﴾ [الأحزاب]، واضح أن حكمه مُخْتَصٌّ برسول الله ﷺ.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث السادس

المؤمنون هم الذين لا يتحاكمون لحلّ مشكلاتهم ومنازعاتهم إلّا إلى شريعة الله، ثم يتقبّلون حكم الشرع أياً كان، ويرضونه ويرضخون له

وهذه الحقيقة صرحت بها الآية (٦٥) من (النساء)، وكذلك الآية (٤٧) من (النور).

أمّا في الآية (٦٥) من (النساء) فَيُقْسِمُ الله تبارك وتعالى مخاطباً رسوله بربوبيتّه، أن الذين يرفضون التحاكم إلى شريعة الله، ويريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، لا يعتبرون من أهل الإيمان، إلا إذا حقَّقوا في أنفسهم هذه الشروط الثلاثة:

١ ـ تحكيم رسول الله ﷺ ﴿يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

٢ ـ عدم الشعور بأي ضِيْقٍ أو حَرَجٍ عند صدور الحكم ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾.

٣ ـ القبول والإستسلام والرضى التام ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

ومما لا شك فيه أن المقصود بتحكيم رسول الله ﷺ هو تحكيم دينه وشريعته، وإذا قلنا بأن المقصود بـ [يُحَكِّمُوكَ] أي يجعلوك حاكماً وحَكَماً بينهم، يجب أن نقول بأن حكم من ينوب عن رسول الله في الحكم

بشريعة الله، هو نفس حكمِ رسول الله ﷺ من حيث وجوبُ طاعَتهِ واتخاذُه حَكَماً لفضِّ المنازعات وحلِّ المشكلات.

وأرى أن الحكمة في ترتيب الشروط الثلاثة على ما نراه، هي:

أن التحكيم هو عمل البدن والجوارح، وعدم الشعور بالضِّيق والحَرَجِ هو عمل القلب، كما أن الإستسلام هو عمل العقل، وبناءً عليه:

قد اشترط الله تبارك وتعالى لاعتبار الإنسان مسلماً مؤمناً، كلاً من:

الإلتزام العملي.
والرضى القلبي.

والإقتناع العقلي.

تجاه حكم الله تبارك وتعالى الذي يُنَفِّذُه رسولُ الله ﷺ ومن ينوب عنه، هذا بالنسبة للآية (٦٥) من (النساء)، وأما الآية (٤٧) من (النور) فينفي الله تعالى فيها بوضوح تام، الإيمانَ عن الذين يَتولّون عن طاعة الله ورسوله ﷺ ويُعْرِضون: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث السابع

المؤمنون هم الذين يُحَقِّقون فيما بينهم الأُخُوَّة

وصرَّحت بهذه الحقيقة الآية (١٠) من (الحجرات) حيث حصر الله تعالى وجود المؤمنين في حالة كونهم إخوة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، ومعنى هذه الجملة: أن المؤمنين لا يكونون مؤمنين إلّا عندما يكونون إخوة، ومن ثم فإذا لم يحققوا بينهم الأُخُوَّة، استحقُّوا أن يُسْلَب عنهم اسمُ الإيمان!

ولا شك أن الأُخُوَّة هي أساس الموالاة، والموالاة مع أهل الإيمان ـ كما سنبين فيما بعد ـ شرط من شروط الإيمان، كما أن موالاة أهل الكفر ـ إذا كانت موالاةً مطلقةً ـ ناقض من نواقض الإيمان.

وبما أننا سنفصِّل القولَ بإذن الله تعالى في قضية الأُخُوَّة والموالاة في الباب الرابع ـ أي الكتاب الثاني عشر من هذه الموسوعة ـ نُرْجيءُ الكلام فيه إلى هناك.

ولكن نُنَبِّهُ على أن كلمة (إِخْوةَ) شاملة للذكور والإناث، بدليل قوله تعالى: ﴿. . .وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۗ . . .﴾ [النساء: ١٧٦]، وبناءً عليه: فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، يفهم منه أنه يجب على المسلمين أن:

١ ـ يكون الرجال منهم إخواناً، بعضهم مع بعض.

٢ ـ وتكون النساء أخوات، بعضهن مع بعض.

٣ ـ ويكون الرجال والنساء إخوة فيما بينهم، فيعتبر المؤمنون إخواناً للمؤمناتِ، وتعتبر المؤمناتُ أخواتٍ لهم، والأُخُوَّة ليست كلمة تقال باللسان، بَلْ هي حقيقة تترتب عليها أشياءٌ كثيرة أوّلها الموالاة، كما سَنُفَصِّل فيها القولَ في محلِّها.

ثم من الواضح أن تَوَلِّيَ أهل الإيمان النابع من الأخوة معهم، يستلزم البراءَةَ من أعدائهم من حيث أديانُهم الباطلة في كل الأحوال، ومعاداتَهُمْ في حال إعلان عِدائهم لأهل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ...﴾ [الممتحنة]، وسنفصل القول في هذه المسائل في الباب الرابع بإذن الله.

والآن بعد أن ألقينا ضوء أنوار بعض آيات كتاب الله على كل من (الإيمان) و(المؤمن)، لِنَنْتَقِلْ إلى الفصل الثالث، كي نتعرّف على ضدِّ الإيمان الذي هو (الكفر) لأنه كما قيل: (وبضدِّها تتبين الأشياء).

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

الفصل الثالث

ما هو الكفر؟!

للتعرُّف على الكفر ومكوِّناته وآثاره الأساسية، لِنَتَدبَّرْ هذه الآيات المباركات:

* ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

* ﴿... وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة].

* ﴿... مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل].

* ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾ [الشعراء].

* ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل].

* ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢﴾ [الجاثية].

* ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ٥٤﴾ [سبأ].

* ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ٤٤ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾ [التوبة].

* ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٩﴾ [الزمر].

* ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة].

* ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥﴾ [الزمر].

* ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩﴾ [محمد].

* ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ٦﴾ [الفتح].

* ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦﴾ [فاطر].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ. . .﴾ [التوبة: ٧٣ ـ ٧٤].

* ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦].

* ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [النور].

* ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ [القيامة].

* ﴿... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

* ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء].

* ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ... أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة].

* ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ...﴾ [محمد: ٢٥ ـ ٢٦].

* ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام].

* ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران].

* ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [النحل].

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء].

* ﴿... وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

* ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف].

وترشدنا هذه الآيات المباركات فيما يتعلَّقُ بمعرفة الكفر ومُكَوِّناتِهِ، إلى الحقائق الثلاث عشرة الآتية، التي نَعْرِضُ كلاً منها في مبحث:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الأول

الكُفْرُ عَمَلٌ يقوم به الإنسانُ الكافِرُ بإرادته الحرة التي أعطاه الله إياها

والآية (٢٩) من (الكهف) واضحة الدلالة على هذه الحقيقة.

واللافِتُ للنظر هنا: أن الله تعالى نَسَبَ كُفْرَ الكفار وضلالَهم إلى ثلاث جهات:

١ ـ **العبد نفسه**: كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾: [آل عمران: ١١٦].

٢ ـ **الشيطان**: كما قال تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل].

٣ ـ **الله تبارك وتعالى**: كما قال رب العزة: ﴿...وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وسبب ذلك: أنَّ العبد الكافِرَ هو فاعِلُ كفره وكاسِبُهُ، والشيطان هو المُوَسْوِسُ والمُزَيِّن له، والله تبارك وتعالى لا يَجْري في ملكه شيءٌ إلّا بإرادته وعلمه وتقديره، من دون أن يُقَلِّلَ ذلك من حرية العبد واختياره شيئاً، وسنبين هذا الموضوع بإذن الله تعالى في نهاية هذا الباب الثاني ـ أي الكتاب الثامن من هذه الموسوعة ـ وكذلك في المطلب الثالث من المبحث الأول من الفصل الأول من الباب الثالث.

المبحث الثاني

الكفر نقيض الإِيمان وعكسه، لِذا فمن اتصف بأحدهما، خلا مِنَ الآخر

وهذه الحقيقة تدل عليها آيات كثيرة جداً، إذْ يقابِلُ الله تعالى وَيقْرِنُ بين الكفر والإِيمان، في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، كَضِدَّين ونقيضين متعاكسين، كما في الآية (٢٩) من (الكهف)، والآية (٥٢) من (العنكبوت)، وجدير بالذكر أن هذه الآية هي الموضع الوحيد الذي استُعْمِلَتْ فيه كلمة (الإِيمان) للتعبير عن الإعتقاد الباطل.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الثالث

محل الكفر في كيان الإنسان هو القلب، مِثْلُهُ في ذلك مِثلُ الإِيمان

وتدّل على هذه الحقيقة أيضاً آيات كثيرة، منها الآية (٧) من (البقرة) والآية (١٠٦) من (النحل).

حيث ذكر الله تعالى في آية (البقرة) أنه ختم على قلوب الكفّار والختم كناية عن انغلاق قلوب الكفار بوجه هداية الله، لأن الرسالة إذا تمت كتابتها تُخْتَمُ ثم تُغْلَقُ.

وبيَّن سبحانه في آية (النحل) أن الذي ينشرح صدره بالكفر، يستحق غَضَب الله تعالى، وإنما ذكر الصَّدر بدل القلب، لأن الصدر محلّ القلب، كما قال تعالى: ﴿...فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وحكمة استعمال كلمة الصدر بدل القلب ـ على ما أرى والله هو العليم الحكيم ـ هي إبراز مدى تمكُّن الكفر من أولئك الكفار، حيث امتلأت به قلوبهم، ثم جاوز شغاف قلوبهم وانسكب وفاض إلى الصّدور وملأها كذلك!

ويعبّر أهل البلاغة عن هذا الأسلوب بـ(إطلاق لفظ المحلِّ وإرادة الحالِّ).

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الرابع

كلٌّ من الجهل والجحود والشك والظن والريب، جذور للكفر مرتبطة بالعقل

أجل إنَّ للكفر جذوراً مرتبطة بقوة الإدراك (العقل)، وجذوراً أخرى مرتبطة بقوة الإرادة (القلب)، وسنتحدث عن جذور الكفر القلبية، في المطلب الآتي بإِذن الله.

والدليل في كتاب الله الحكيم على كون كلٍّ من: الجهل والجحود والشك والظن والريب، جذوراً للكفر، هو:

أولاً: بالنسبة للجهل: الآيتان (٥، ٦) من (الشعراء)، حيث يصف الله تعالى فيهما الكفار بكونهم، معرضين عن كلّ ذكرٍ حديث آتٍ من الرحمٰن ﷻ، ثم يحكم عليهم بأنهم قد كذّبوا وأنهم سيأتيهم أنباء ما يستهزؤون به.

والشاهد في الآيتين هو أن الله تعالى بعد أن بيَّن أَنَّ الكفار يُعْرِضون عن ذكره وآياته، حكم عليهم بالكفر والتكذيب، ومن الواضح أن المُعْرِضَ عن الشيء، يَبْقى في الجهل ولا تَتَسَنَّى له مَعْرِفَتُهُ، ولكن مع هذا اعتبر الله تعالى جهلهم الناشيءَ عن إعراضهم، كفراً وتكذيباً.

ومن الواضح أنَّ هذا الجَهْلَ العَمْديَّ المتقَصِّد، يختلف عن الجهل الذي يُعْذَرُ به صاحِبُهُ.

وكذلك يدل على أنَّ الجهلَ بدين الله الحق، من جرّاء الإِعراض عنه، جَذْرٌ من جذور الكفر، ومكوِّن من مكوِّناته، قولُ الله تعالى: ﴿... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

ثانياً: الجحود: والجحود عكس الجهل، هو معرفة الحق والإذعان به في القلب، مع عدم الإقرار به في الظاهر[١]، وتدل عليه الآية (١٤) من (النمل) حيث يصف الله تعالى فرعونَ وقومَهُ الكُفّارَ، بأنَّهم قد استيقنوا صِدْقَ موسى (عليه السلام) وصِحَّةَ آياتِهِ، ولكنهم لم يُقِرّوا له بذلك ظلماً وعلواً.

ثالثاً: الشك: والشك عرَّفه العلماء بأنه: (حالة نفسية يَتَرَدَّدُ معها الذهن بين الإثبات والنفي، ويتوقَّفُ عن الحكم)[٢]، والدليل على أن الشك جَذْرٌ آخر من جذور الكفر، هو الآيتان (٥٣، ٥٤) من (سبأ) حيث يصف الله تعالى فيها الكفّارَ الجهنَّميين بقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ ثم يُعلِّل كفرَهم بقوله: ﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

رابعاً: الظن: وقد عرَّف العلماءُ أو بعضُهم (الظنّ) بقولهم: (إدراك الذهن الشيء مع ترجيحه، وقد يكون مع اليقين)[٣]، والدليل على كون الظن جذراً آخر من جذور الكفر، هو قوله تعالى عن الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ الجاثية، وواضح من الآية أن (الظن) خلاف (اليقين)، والإِيمان لا يفيد فيه سوى الجَزْمِ واليقين الراسخ الثابت، شيئاً.

خامساً: الرَّيب: والريب هو أدنى الشك والتردّد الذي يجعل صاحبه

(١) المصباح المنير، ص٥٢.
(٢) التعريفات، للجرجاني، ص١٣٠، (والمصباح المنير)، ص ١٦٧.
(٣) المعجم الوسيط، ص ٥٧٨. وقال الجرجاني: هو الإِعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، التعريفات، ص ١٤٥.

لا يستقر على حال، والدليل على كون الريب والتردّد جذراً من جذور الكفر، هو الآية (٤٥) من (التوبة)، والتي يصف الله تعالى فيها المنافقين الذين كانوا يستأذنون رسول الله كي لا يخرجوا معه إلى الغزو والجهاد بأنهم: ﴿...فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الخامس

وكذلك كلّ من الإسْتِكبار والإِباءِ والإِشمئزاز من ذكر الله، وحبّ غير الله مثل حبّ الله، وكراهية دينه وسُوءُ الظن به، جذور قلبية للكفر

أولاً: أما الدليل على كون الإستكبار تجاه آيات الله ودينه ورسوله جذراً قَلْبياً للكفر، فهو كلّ من آية (٥٩) من (الزمر) والآية (٣٤) من (البقرة)، حيث يخاطب الله تعالى في آية (الزمر) الكافِرَ يوم القيامة، والذي يُظْهِرُ الأَسَفَ والندم على ما ارتكبه في جنب الله، ويتمنّى العودةَ إلى الحياة **الدنيا ثانية، لتدارك ما فاته، بقوله**: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر]، حيث يُرَتِّبُ الله تعالى كُفْرَ الكافرين على تكذيبهم بآيات الله واستكبارهم عنها.

وفي آية (البقرة) يصف الله تعالى إبليسَ بالإِباءِ ـ عن السجود لآدم ـ والإِستكبار، ومن ثم صيرورته كافراً.

ثانياً: وبالنسبة للإباء، فآية (٣٤) المتقدمة من (البقرة) مصرِّحة بأن اتصاف إبليس به وبالإستكبار، هو الذي أدّى به إلى الكفر، حيث قال تعالى: ﴿. . . فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

«وَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَنْ أَبى!**» قَالُوا يَا رَسُولَ الله وَمَنْ يَأْبى؟! قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبى**» (رَوَاهُ البُخَارِيّ: ٧٢٨٠)

والإباء هو الإمتناع، والمقصود به هنا هو الإمتناع عن الطاعة والإمتثال، وهو غير الإستكبار، بدليل أن الله تعالى قَرَنَ بينهما، والإستكبار إباءٌ وزيادة أو نقول: هو إباءٌ خاصٌّ.

ثالثاً: وأما كون الإشمئزاز ـ أي إشمئزاز القلب ـ عن ذكر الله تعالى (وهو انقباضه وانزعاجُهُ) جذراً من جذور الكفر القلبية، فالدليل عليه قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر].

ومن الواضح أن كلمة [﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾] تشمل ذكر كلِّ شيءٍ مُرْتَبطٍ بالله تعالى وتوحيده، لذا فَمَنْ تضايق بذكر الإسلام وحقائقه وأحكامه، فهو ممَّن يشملهم مفهوم الآية المباركة.

وكذلك الدليل على أن حبّ غير الله مثل حبّ الله، كفر قَلْبيٌّ آخر، هو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ...﴾ [البقرة: ١٦٥].

رابعاً: وأما كون كراهية دين الله وكتابه، جذراً من جذور الكفر القلبية، فدليله الآيتان (٨، ٩) من (محمد): ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾﴾.

خامساً: والدليل على أنَّ سوءَ الظنِّ بالله تعالى، جَذْرٌ آخر من جذور الكفر القلبية، هو قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴿٦﴾﴾ [الفتح]، وكذلك قوله تعالى في الآية (١٥٤) من (آل عمران): ﴿...وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ...﴾.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث السادس

تجسُّد الجذور العقلية والقلبية للكفر في التكذيب

لقد لَخَّصَ الله تعالى مواقِفَ أهل الكفر العدائية للرسل والأنبياء - عَلَيهِم الصَّلاة - في التكذيب، والتكذيب هو رمي الطرف المقابل بالكذب، ويشترك فيه كلٌّ من: العقل والقلب واللِّسان، قال سبحانه وتعالى بهذا الصَّدد: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر]. إذن: فالتكذيب هو مُحصِّلة كلِّ الجذور العقلية والقلبية للكفر، وبالنتيجة: فالتكذيب كالشجرة القائمة على تلك الجذور.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث السـابع

أنواع الكفر الظاهرة على اللسان

وكذلك اعتبـر الله تعالى تلفظ اللِّسان بالكلمات الكفرية، والسخرية والإستهزاء بالله تعالى، أو بأي شيء يرتبط به مثل كتابه ورسوله ودينه... كفراً، كما في الآيات (٦٥، ٦٦) و(٧٣، ٧٤) من سورة (التوبة).

ومما لا شك فيه أن التلفظ بالكلمات والتعبيرات الكفرية، وكذلك الإِستهزاء والسخرية بالدين، يتمثَّلان في صور متعدِّدة وكثيرة، وقد فصَّلها بعض العلماء في كتب خاصة.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الثامن

كفر التولِّي والإِعراض

وكذلك التَولِّي والإعراض عن طاعة الله تعالى والإلتزام بشريعته، ثمرة أخرى من ثمار شجرة الكُفر المترسخة الجذور في العقل والقلب.

وتدل على هذه الحقيقة آيات كثيرة، نكتفي بالإشارة إلى مثالين منها فقط:

أولاً: قال سبحانه وتعالى في معرض الحديث عن المنافقين: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [النور]، كما نرى: نَفى جَلَّ وعلا الإيمانَ عن الذين يُعرِضون ويتولّون عن طاعة الله ورسوله ﷺ، بالرغم من ادِّعائهم أنهَّم آمنوا بالله وبرسوله ﷺ.

ثانياً: وفي الآيات (٢٤ إلى ٣٥) من سورة (القيامة) وفي سياق يتحدّث فيه ربُّ العالمين عن الإنسان الكافر المُسْوَدّ وَجْهُهُ يوم القيامة، يقول سبحانه وتعالى في نهاية ذلك السياق، معلِّلاً ذلك المصير المشؤوم الذي يفاجيءُ الإنسانَ الكافر: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ [القيامة]، كما نرى وفي بيان سبب ذلك المصير المشؤوم للكافر المسودِّ الوجه، ينفي الله تبارك وتعالى كلاً من (التصديق) و(الصلاة) عن ذلك التعيس، ويَثْبِتُ له بَدَلَهُما (التكذيب) و(التولِّي)، وهذا يفهم منه أن عدم التصديق وعدم إقامة الصلاة [﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾]

مساويان للتكذيب والتولّي [﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾]، وهذا دليل على أن ترك الصلاة كفرٌ مُخْرِجٌ من المِلَّة! ولسنا الآن بصدد البحث في هذه المسألة، وإلّا لاستطعنا أن نسرد أدلة كثيرة على أن تارك الصلاة بالكلّية، لا يُعتبر مسلماً، وقد نسب (عبدالله بن شقيق) التابعي رَحِمَهُ الله هذا الرأي إلى الأصحاب كلهم[1]. ولكن لا يجوز العَملُ بهذا الرأي، إلا بعد إعمال قاعدة: [ثبوت الشروط وانتفاء الموانع] والشروط التي يجب توفُّرها قبل إصدار الحكم بالكفر من قبل علماء مُخْتَصِّين على شخصٍ ما، هي هذه الثلاثة: ١ ـ العقل. ٢ ـ البلوغ. ٣ ـ وصول البلاغ المبين.

والموانع التي يجب انتفاؤها، هي هذه الستة: ١ ـ العَجْزُ. ٢ ـ الجهل. ٣ ـ الإكراه. ٤ ـ الخطأ. ٥ ـ النِّسيان. ٦ ـ التأويل..

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) أخرجَهُ الترمذي وقال النووي في (المجموع): إسنادهُ صحيح، (المجموع شرح المهذَّب)، ج٣، ص١٨.

المبحثان التاسع والعاشر

الحكم بغير ما أنزل الله، والتحاكم إلى غير شريعته

إنَّ (الحكم بغير ما أنزل الله) و(التحاكم إلى غير شريعة الله)، ثمرتان أُخريان من ثمار شجرة الكفر، ومكوِّنان أساسيان من مُكَوِّناته:

ويدل على الأول قوله تعالى: ﴿... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، كما تدل على الثاني الآيتان (٦٠، ٦١) من (النساء): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾.

وبما أننا سنفصل القول بإذن الله في هاتين المسألتين في الباب الثالث، وذلك في المطلبين الأول والثاني في المبحث الأول من الفصل الثالث منه، لذا فلا نُطيلُ الحديثَ عنها هنا، ونَكتفي بإبداء الملاحظات الآتية:

١ ـ (الحكم بغير ما أنزل الله) وكونه أحد المكفِّرَات، خاصٌّ بالحكّام لأنهم هم الذين يَتَسنَّى لهم الحُكمُ على الناس، ولكن (التحاكم إلى غير شريعة الله) يشملهم وكلَّ مَنْ عداهم، ممَّن يرفضون اللُّجوءَ إلى حكم الله تعالى لحلِّ مشكلاتهم.

٢ ـ إن الله تعالى أطلق القولَ بكون كلِّ مَن لم يحكم بما أنزل الله

تعالى كافراً، ولم يُقَيِّدهُ بشيءٍ، ولم يستثن منه أحداً، وبناءً عليه: فأيُّ صاحب سلطةٍ ـ ممَّن يعتبرون أنفسهم مسلمين ـ رَفَض[(١)] شريعةَ الله أساساً، واستعاض عنها بنظام آخر، أياً كان اسمه وعنوانه، فذلك السلطانُ يصبِحُ بعمله ذلك كافراً، وإن كان قبل ذلك مسلِماً جيِّدَ الإسلام!

وأما الذين يقوِّلون الآية الكريمة ما لم تَقُلْهُ، مثل قولهم: إن هذه الآية يُقْصَد بها فقط الحكامُ الذين لا يعتقدون في قلوبهم حقّانية حكم الله، أو: أَنَّ المقصود بهذه الآية هم أهل الكتاب، لذا لا تشمل الحكام والسلاطين الذين يعتبرون أنفسهم مسلمين! أجل إن أولئك ـ كما أرى والله تعالى هو العليم الخبير بذات الصدور وببواطن الأمور ـ إنما ينطلقون في أقوالهم تلك، من منطلق تَبْرِئَةِ الحكّام الطواغيت المُتَسلِّطين على رقاب المسلمين، من حكم الكفر اللازم لهم، حسب منطوق كلام الله تعالى ليس إلّا، ولكن أولئك الطواغيت ليسوا جديرين بذلك الدفاع، وكذلك ذلك الدفاع المتهافت أيضاً أقلّ شأناً، من أن يُحَقِّقَ ذلك الهدف والغَرَضَ المريض الذي يَصْبون إليه.

وعلى أية حال فَبَسْطُ الحديث عن هذا الموضوع يحتاج إلى مكان آخر، لذا نكتفي هنا بهذه الإشارة.

٣ ـ كلمة (الطاغوت) فسّرها[(٢)] العلماء كلُّهم وفي مقدِّمتهم (ابن جرير الطبري) رحمه الله المشهور بشيخ المفسرين بقولهم: (الطاغوت هو كلّ معبودٍ سوى الله، سواء كان بشراً أو حجراً أو كوكباً... إلخ)، ولكنّي أرى ـ حسب تَأَمُّلي في السياقات القرآنية التي وردت فيها كلمة الطاغوت ـ، أن الطاغوت لا يقصد به سوى الحكّام الذي يُشَرِّعون الشرائِع للناس حسب أهوائهم، أو يحكمون عليهم بأنظمة جاهلية ما

(١) ومن الواضح أن رفض شريعة الله تعالى أساساً، شيءٌ، والحَيْدَةُ عنها في حكمٍ أو أكثر بدافع الشهوة والمصلحة، شيءٌ آخر، وله حكمٌ آخر.

(٢) تنظر: (المصباح المنير في تهذيب تفسير إبن كثير) ص١٨٦، و(فتح القدير) ج١، ص ٣٥٩.

أنزل الله تعالى بها سلطاناً، وذلك لأن الله تعالى نَسَبَ إلى الطاغوت إخراج الناس من النور إلى الظلمات، كما قال: ﴿...وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ...﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ولا شكَّ أن إخراجَ الناس من النور إلى الظلمات، فعلٌ متوقفٌ على ذي حياةٍ وشعور وإرادة، وهذا لا يَتَأتَّى إلّا ممّن يمتَلكون الحياةَ والشعورَ والإرادَةَ، وأولئك ليسوا سوى الإنسِ والجنِّ، إذ الملائكة معصومون عن الإنحراف ولا نعلم ـ حسبما نرى في كتاب ربِّنا ـ غير الجنِّ والإنس مخلوقاً آخر، يمتلك الحياة والشعور والإرادة الحرة، ومن ثم فلا يَتَأتَّى ذلك الفِعْلُ الذي يُنْسَبُ للطاغوت، إلّا من مَرَدةِ وشياطينِ الإنس والجن.

وسبب نزول تلك الآيات التي أدرجنا منها الآيتين: (٦٠، ٦١) من سورة (النساء)، دليل آخر على أن الطاغوت هو الحاكم بغير ما أنزل الله، إذْ نزلت تلك الآيات في مسألة نزاع رجلين (يهودي ومنافق متظاهر بالإسلام) فأراد المنافق أن يذهبا إلى (أبي برزة الأسلمي) الكاهن، أو (كعب بن الأشرف) رأس اليهود في خيبر، فأنزل الله تعالى هذه الآيات وسُمِّي الشخصُ الذي يريدُ المنافِقُ التحاكُمَ إليه (طاغوتاً)[1].

(١) أنظر (أسباب النزول) للنَّيسابوري إذ ينقل خمس حكايات بهذه المناسبة هذه إحداها: (وقال الكلبي عن أبي صالح عن بن عباس نزلت في رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال اليهودي: انطلق بنا إلى محمد، وقال المنافق: بلْ نأتي (كعب بن الأشرف) وهو الذي سمّاه الله تعالى (الطاغوت)، فأبى اليهوديُّ إلّا أن يخاصِمَه إلى رسول الله، فلما رأى المنافِقُ ذلك، أتى معه إلى رسول الله ﷺ فاختصما إليه، فقضى رسولُ الله لليهودي، فلَّما خرجا من عنده لَزِمه المنافِقُ وقال ننطلق إلى عمر بن الخطاب، فأقبلا إلى عمر، قال اليهودي: اختصمنا أنا وهذا إلى محمدٍ فقضى لي عليه فلَم يرْضَ بقضائه، وزعم أنه مخاصمٌ إليك، وتعلَّق بي فجئت إليك معه، فقال عمر للمنافق: أكذلك؟! قال نعم، فقال لهما: رويداً حتى أخرج إليكما، فدخل عمر وأخذ السَّيف فاشتمل عليه ثم خرج إليهما وضرب به المنافق حتى بَرَدَ، وقال: هكذا أقضي لمن لم يُؤمِنْ بقضاء الله وقضاء رسوله، وهَرَبَ اليهوديُّ، =

....

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

= ونزلت هذه الآية، وقال جبريل: إن عمر فرق بين الحق والباطل، فسمِّي الفاروق). ص ٨٩، ٩٠، ط١دار المنار ١٤٢٢هـ وانظر: (الإستيعاب في بيان الأسباب) ج١ ص٤٢٣، ٤٢٤.

وقال السيوطي: (أخرج ابن أبي حاتم والطبراني بسند صحيح عن ابن عبّاس قال: كان (أبو برزة الأسلمي) كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناسٌ من المسلمين، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ...﴾ إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾...﴾ [النساء]، انظر: (لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، ص٨١، رقم:٢٧٩، وأسباب النزول للنيسابوري.

وانظر: لهذه الحكايات كلّها وحكم أسانيدها: (الإستيعاب في بيان الأسباب) ج١، ص٤٢٠ إلى ٤٢٤.

المبحث الحادي عشر

موالاة أعداء الله تعالى

وموالاةُ أعداءِ الله، ثمرةٌ أخرى من ثمار شجرة الكفر المتجذِّرة في أعماق عقولِ أهل الكفر وقلوبهم.

وتدل على هذه الحقيقة آيات كثيرة، نكتفي منها بقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾.... ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة].

والشاهد في هذه الآيات على ما قلنا:

أولاً: أن الله تعالى اعتبر الذين يتولَّون الذين غضب الله عليهم، وهم الكفّار عموماً، واليهود خصوصاً، غير مؤمنين، فقال: (ما هم منكم) فنفى عنهم الإنتساب الصحيح إلى أهل الإيمان.

ثانياً: وفي ختام الآيات المباركات، وصفهم الله تعالى بأنهم تسلَّط واستولى عليهم الشيطانُ وأنساهم ذِكْرَ الله، ثم سمّاهم (حزب الشيطان) وَوَصَم حزب ذلك الخبيث الهالك بالخسران!

وبما أننا سنفصّل القول في موضوع الموالاة في الباب الرابع ـ الكتاب الثاني عشر من هذه الموسوعة ـ بإذن الله نكتفي منه هنا بهذه الإشارة المختصرة.

المبحث الثاني عشر

إطاعة الكُفَّار

وإطاعة الكفّار، كذلك ثمرةٌ أُخرى من ثمار الكفر المتجذِّر في العقل والمترسِّخ في القلب.

وتدل على هذه الحقيقة، كل من الآيات (٢٥و٢٦) من (محمد)، والآية (١٢١) من (الأنعام) حيث يبِّينُ سبحانه وتعالى في آيتي (محمد) وفي سياق الحديث عن المرتدِّين، أن سبَبَ ارتدادِ أولئك المرتدِّين هو: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ فيعلِّلُ سبحانه ارتدادَهم بمجرَّد وعدهم الكفار الذين يكرهون كتاب الله المنزَّل، بأن يطيعوهم في بعض الأمر (وليس في كل الأمور)!

فكيف إذن حال من يطيع الكفار فعلاً وفي كل الأمور؟! أجل إذا كان مجرَّد توطين النفس وعَقْدِ العَزم على إطاعة الكفار الكارهين لوحي الله وشرعه في بعض أمورهم، سبباً للَكفر والإِرتداد، فلا شك أن إطاعتهم فعلاً وفي كل شيءٍ، كفرٌ أغلظُ وأفظَعُ.

وأمّا في آية الأنعام، وفي معرض الحديث عن عدم جواز الأكل من الذبيحة التي لا يذكر اسم الله تعالى عليها، وتُذْبَحُ على غير اسم الله، يُخْبِرُ الله تعالى أهلَ الإيمان، أن الشياطين ـ من الجن ـ يوسوسون إلى أوليائهم المشركين، كي يجادلوهم بشأن الذبائح التي لم يُذْكَر اسمُ الله عليها، ثم يقول تعالى: ﴿...وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

إذن: فإطاعة المسلم للكفّار في القليل والكثير، ما دامت طواعيةً وكانت في مجال الحلال والحرام، سَبَبٌ لارتداده عن الإسلام، ودخوله في حمأة الكفر والشرك، وذلك بيِّن واضح لمن تَأَمَّل تلك الآيات التي استشهدنا بها، والتي ليست سوى أمثلة من آيات أخرى كثيرة في الموضوع مورد البحث.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الثالث عشر

المُكرَهُ على الكفر، مستثنىً من هذا الحكم

ولكن هناك حالة واحدة فقط مستثناة من هذا الحكم ـ أي حكم صيرورة مسلم مرتدّاً من جرّاء إطاعته لأهل الكفر ـ وهي أن يكون المؤمن أو المؤمنون في حالة ضُعْفٍ[1] واستضعاف، كالأسر مثلاً، ففي تلك الحالة وعند التعرُّض للضغط الشديد الفعلي، أو التهديد القولي الجِدِّي، يجوز اللجوء إلى ما فيه النجاة، تَقيَّةً ومُداراةً، وتدل على هذه الحقيقة، كل من الآية (٢٨) من (آل عمران)، والآيتان (١٠٦و١٠٧) من (النحلّ).

وسنتحدث عن هذا الموضوع في الباب الرابع بإذن الله العزيز، ولهذا لا نطيل الوقوف عنده هنا، ولكن نذكِّر بأن (تقية)[2] الشيعة والتي يستعملونها مع غيرهم من المسلمين، ومن دون أن يكون هناك مُوجِبٌ من ضغطٍ وإكراه، فالآية الكريمة بعيدةٌ عنها، ولا تمُتُّ إليها بصلة، ولا شك أن التعامل مع المسلمين بإظهار خلاف ما يُبْطَن، من خصال النفاق، ويجب على مَنْ يَعُدُّ نَفْسَهُ مسلِماً، تَجنُّبُه كي لا يتلبَّس بشيءٍ من خصال المنافقين. وكذلك نُذَكِّر بحقيقة أخرى، هي:

أن قوله تعالى: ﴿. . . وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ في نهاية

(١) ضَعُفَ ضُعفاً، وضَعَفَ ضَعْفاً: خلاف القوة والصِّحَّة. المصباح المنير، ص ١٨٧.

(٢) وقاهُ الله السَّوءَ يقيه وِقاية: حفِظَهُ. . .واْتَّقَيْتُ الله اتقاءً والتقيَّة والتقوى اسمٌ منه. المصباح المنير، ص ٣٤٥.

الآية (٢٨) من (آل عمران) إنذارٌ من الله الحكيم للمسلمين، بعد إعطائه رخصة التَّقِيَّة في حالة الضعف وعند الإضطرار، كي لا يتمادوا في تلك الرخصة، بحيث تخرجُ بهم عن حَدِّ الضرورة الشرعية، إذ من القواعد الشرعية المقرَّرة أن (الضرورات تُقَدَّرُ بِقَدَرها)، ثم لا شك أنَّ المُرخَّصَ به في هذا المجال، هو قولُ اللسان المجرَّد، أو الفعل الظاهريُّ فقط، واللذان لا يتجاوزان ظاهِرَ الإنسان إلى باطنه، وقوله تعالى: ﴿... إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ...﴾ [النحل: ١٠٦]، دليل واضح وبرهان ساطعٌ في هذا المجال.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

موضوع الكفـر

وكل ما مرّ ذكره في المباحث السابقة، إنـما هو مرتبطٌ بقضيَّة الكفر من حيث حقيقتُه ومحلُّهُ في كيان الإنسان، وكذلك جذورُه وآثـارُه وثـمارُه، وأمّا ما الذي يحصل به الكفرُ؟ أو ما هو موضوع الكفر؟ فهذا ما سنجيب عنه في ضوء كلٍّ، من الآيتين (١٥٠و١٥١) من (النساء)، والآية (١٣٦) منها، والآية (١٠٥) من (يوسف)، وقد أدْرجنـاها سـابقاً، وتُفيـدُنا هـذه الآيات فيما نحن بصدد البحث فيه، الحقائق الآتية:

الأولـى: كل من لم يؤمنْ بأحدٍ من رسل الله وأنبيائه الكرام ـ عَلَيهِم الصَّلاةُ وَالسّلام ـ وخصوصاً بخاتم الأنبياء وسيّدهم (محمد) ـ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَعَلَيْهِم وَسَلَّم أجْمَعين ـ والذي هو مصدِّق لهم جميعاً، وكتابُهُ الخاتم مُصَدِّقٌ لكتبهم ومهيمنٌ عليها جميعاً، أَجَل، كلُّ من لم يؤمن بأَحدٍ منهم فهو كافرٌ، وإن ادّعى الإيمانَ ببقية رسل الله وسائر شرائعه، وتدُلُّ على هذه الحقيقة بَل تُصرِّحُ بـها، الآيتان: (١٥٠و١٥١) من (النساء) حيث يحكم الله تعالى حكماً قاطعاً على الذين يقولون: نؤمِنُ ببعض رسل الله ونكفر ببعض، سواءٌ بلسـان المقـال أو الحال، بقـولـه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾.

وبنـاءً عليـه:

فاليهود والنصارى والصابئة والمجوس وكل مَن يدّعون التدّين بشريعة

ربانية، طالما لم يؤمنوا برسول الله الأعظم، ونبيِّه الخاتم، ونوره الأتم (محمد) ﷺ يُعْتَبرون كفرةً، ولا يشفع لهم ادعاؤهم الإيمان بسائر الأنبياء والرسل ـ عَلَيهم الصَّلاةُ وَالسّلام ـ، وذلك لأنَّ من لم يؤمن بخاتم الأنبياء، بالإضافة إلى أنه يَحْرِمُ نَفْسَه من اتّباع دين الله الحق، وكتابه الوحيد الذي سَلِمَ من التحريف والتغيير، فهو نتيجة كُفْرِهِ بمحمَّدٍ ﷺ يَنْقُضُ إيمانَهُ بسائر الأنبياء أيضاً، وذلك لأن الأنبياء السابقين ـ عَلَيهم الصَّلاةُ وَالسّلام ـ كُلُّهم قد بشَّروا أمُمَهم وأقوامَهم وأَخبروهم بمجيء النبيِّ الخاتم، وَوَصَّوْهُمْ أن يؤمنوا به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران].

ومن الواضح أن الأنبياء الكرام الذين أخذ الله تعالى منهم العَهْدَ والميثاقَ، على أن يؤمنوا بالرسول المصدِّق لما معهم، وينصروه، قد وَفُّوا بعهد الله وبَرُّوا بوعدهم، أي: بلَّغ كلُّ نبي أَتْباعَه، أن يؤمنوا بالنبيِّ الخاتم المصدِّق لكلِّ الأنبياء ويتَّبِعوه وينصروه، لذا فمن لم يؤمنْ بالنبيِّ الخاتم، من أهل الكتاب، فهو قبل أن يكفر بمحمد ﷺ، قد كفر بالرسول الذي يدّعي الإنتساب إليه، لأنه لم يُنَفِّذْ وَصِيَّتَهُ وعَهْدَهُ إليه!

الثانية: وكذلك كل من لم يؤمن بالله، أو ملائكته، أو كتبه، أو رسله، أو اليوم الآخر، فهو قد ارتكب كفراً ويُعَدُّ كافراً، وهذا ما صرَّحت به الآية (١٣٦) من (النساء)، والكفر بالله يتضمَّن:

أ ـ الكفر بخالقيّتِهِ وربوبيَّته ومالكيته.

ب ـ والكفر بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى.

ج ـ والكفر بألوهيته وحاكميته وولايته.

كما أن الكفر بالملائكة، يتضمن عدم الإيمان بوجودهم، أو بأن

يُنْسب إليهم ما يخالفُ الأوصاف التي وصفهم الله تعالى بـها.

وكذلك الكفر بكتب الله تعالى، يحصل جرّاءَ عَدَم الإيمان بأي من الكتب الرّبانيـة التـي صَحَّتْ نِسْبَتُهُ إلـى الله تعالى، أو بوصف أيٍّ منها بـما لا يليـق بالله تعالـى وكلامه.

وكـذلـك الـكـفـر بـرسـل الله، يَـحْـصُـلُ بـإنـكـار نُـبـوَّة أيّ مـنـهـم، ممَّـن ذكرهم الله بأسمائهم في القرآن[١]، وصرَّح بنبوَّتهم ورسالتهم، أو بإبداء أي موقف تجاه أحدهم، يدلّ على الإهانة والتقليل من شأنه.

والكفر باليوم الآخر، يتضمَّن عدَمَ الإيمانِ والتصديقِ بـمجيئه، أو عدم التصديق بأيِّ شيءٍ مُرتبطٍ به، أخبـر الله تعالى عنه في محكم كتابه الكريم.

وسنفصل القول في كيفية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، في الفصول الخمسة التالية لهذا الفصل الأول.

الثـالثة: وكذلك الكفر بأيٍّ من آيات الله الـخَلْقيَّة أو الأَمْريَّة، مِمّا اعتبره الله تعالى كفراً، يؤَدِّي بصاحبه إلى الكفر.

والمقصود بآيات الله الخَلْقية، هو مظاهِرَ ربوبية الله وحاكميته وألوهيته المبثوثة في الأنفس والآفـاق، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]، وإنما سـمَّى الله مظاهِرَ ربوبيَّتـه المتجلِّيـة في الأنفس والآفاق (آيات) وَهي جمع (آية) لأنـها علاماتٌ وقرائِنُ على ربوبيَّتـه وأسمائه الحسنى وصفاته العُلى، كما قال أحد الشعراء:

وفـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــة   تـــدلّ عـــلـــى أنـــه واحِـــدٌ

---

(١) لا شك أن الإيـمان بكلِّ ما جاء في السنة النبويّة التي صحَّتْ نسبتها إلى رسول الله ﷺ في الإخبار بالمغيَّبات وغيرها، واجبٌ، ولكن نتحدث هنا عمّا يُصْبِحُ به الإنسانُ كافراً.

وكذلك قال أحد العلماء: (وحدة الله تتراءى في وحدة خَلْقِهِ، وقدرته تَتَراءى في بديعِ صُنْعِهِ).

أما الآيات الأمرية، فهي آيات الله المنـزَّلة وحياً على أنبيائه ورسله ـ عَلَيهم الصَّلاةُ وَالسّلام ـ، وقد نَسَبَ الله تعالى إلى نفسه كلاًّ من الخَلْق والأَمْر، نسبةً تنفي اشتراكَ غيره فيهما، حيث قال: ﴿...أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف].

والدليل في كتاب الله تعالى على أن الكفر بآيات الله الخَلْقية أو الأَمْرية، يعتبر كفراً بالمفهوم الشرعي الإصطلاحي، هو قوله تعالى:

أولاً: في الآية (١٠٥) من (يوسف): ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾، والآية في مَعْرض الحديث عن الكفار والمشركين، والآيات الخَلْقيَّة هي المقصودَةُ في الآية.

ثانياً: في الآية (٥٩) من (الزمر): ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾، والمقصود بالآيات هو الآيات الأمرية كما هو واضحٌ.

والكفر بآيات الله الخَلْقية، يتمثَّل في الإعراض عنها، كما هو مُصَرَّحٌ به في آية (يوسف)، أو إنكارُ خالِقِها ورَبِّها، أو الإشراك به فيها، أو الإلحاد في أسمائه وصفاته فيها، كاستعمال لفظ الطبيعة مثلاً بدل الخالق جلّ شأنه.

والكفر بآيات الله الأمرية، يتمثّل في عدم اعتقاد مجيئها من الله تعالى، أو الجحود بها، أو الإستهزاء بها، أو عدم الإلتزام بها ـ أي الإلتزام الكلِّي ـ.

وقد جمع الله تعالى الكفر بآيات الله الخَلْقية والأَمْرية، في آية واحدة في سياق الحديث عن الكفار، حيث قال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس]، حيث

يأمر الله تعالى نَبيَّه أن يُلْفِتَ أَنظارَ الكفّار إلى آيات الله المتجلِّية في السموات والأرض، لعلَّهم يَنْتَبِهون ويؤمنون، ثم يقول: [﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾] أي: إن آيات الله النيِّرة المتجسِّدة في مظاهر خَلْقِهِ، ونذره المتمثِّلة في آياته المنزَّلة، لا تنفع قوماً صَمَّموا على عَدَم الإيمان، ولا يرغبون في الإيمان، وهذه الآية دليل على أن الآيات الخَلْقَية، مثلها مثل الآيات الأَمْرية، وسيلة وطريق للإيمان والهداية، لمن يريد الإيمان ويرغب في الهداية.

وأختم بحثي عن الكفر، والذي وضَّحْنا فيه: مفهومَهُ ومَحَلَّه وجذوره وآثاره وثماره وموضوعه، بهاتين الملاحظتين:

١) إن كلاً من مكوِّنات الكفر، سواء منها ما يتعلَّق بالعقل، أو القلب، أو اللِّسان، أو الجوارح، أو جميع البدن، ظاهره وباطنه، كل منها على حِدَةٍ، يُعتبر كفراً في حدِّ ذاته، بِغَضِّ النظر عمّا يتعلق به في الإنسان، وذلك لأن الله تعالى اعتبر هذه الأشياء كفراً، إذاً: يَجِبُ أن نعتبرها نحن أيضاً كفراً، كما سمّاها الله تعالى.

٢) إن آثارَ الكفر وثمارَه ليست منحصرة فيما ذكرناهُ، بل هي كثيرة جدّاً، ولكن ما ذكرناهُ في هذا المبحث يُعْتَبَرُ مُكوِّناً للكفر، أي يتركَّبُ منه الكفر ويتكوَّن، وأما الآثار والثمار الأخرى، فلا يُشْتَرَطُ فيها أن تكون مكوِّنة للكفر، أي إن وجودَها في شخصٍ ما، لا يعتبر دليلاً على كفره.

وسنتحدث عن آثار الكفر وثماره، بتوفيق الله في الباب الرابع، وأمّا الآن فإلى الفصل الرابع:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

الفصل الـرّابـع

مُقـارنَةٌ بيْن مُكـوِّناتِ الإِيمـان، ومكوِّناتِ الكفـر

ونقصد بهذه المقارنة: إِلقاءَ مزيدٍ من ضوءِ كتاب الله الحكيم على الإِيمان والمؤمن، ومعلومٌ أنه في نفس الوقت، سَتَتجلّى لنا حقيقَةُ الكفر وماهية الكافر أكثر فأكثر، إذْ كما قيل: وبِضِدِّها تتبيَّن الأَشياءُ.

ويتكون هذا الفصل من ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: سَرْدُ مكوِّنات الإيمان ومكوِّنات الكفر، والمقارَنَةُ بينها وشَرْحُها.

المبحث الثاني: موضوع الإيمان.

المبحث الثالث: مقارنة بين مكوِّنات الكفر ومكوِّنات الإِيـمان.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الأول

سَرْدُ مكوِّنات الإيمان ومكوِّنات الكفر، والمقارَنَةُ بينها وشَرْحُها

١ و٢ و٣ ـ يشترك الإِيمانُ والكفرُ في ثلاثة أشياء، وهي:

١ ـ كونُ القلب محلّ استقرارهما.

٢ ـ كونُهما مِنْ كَسْبِ الإنسانِ وفعله.

٣ ـ نَقْضُ أحَدِهِما للآخر.

وبما أنّنا قد بينّا هذه المسائل بالنِّسبة لكل من الإِيمان والكفر، نَكتفي بما قلناه في السابق ولا نُعيدُه هنا.

٤ ـ إِرتباطُ الإِيمان بالعَقْل، يَتَمَثَّلُ في العلم والمعرفة الصَّحيحة واليقين، في مقابل: الجهل والجحود والشك والظنّ والرَّيب والتردّد، جذورِ الكفرِ المرتبطة بالعقل:

وقد استشهدنا بالآيات المباركات في السّابق بالنِّسبة لجذور الكفر، وهذه بعض الآيات على أن العلم والمعرفة واليقين، تُمثِّل ارتِباطَ الإيمان بالعقل المؤمن:

قال الله العلي الحكيم:

أ ـ ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد]، حيث جعل الله تعالى العِلْمَ بحقانيَّةِ كتاب الله في مقابل العَمَىٰ عنه، ثم بَيَّن أن الذين يَتَذَكَّرون بسبب الإِطِّلاع على

حقانية كتاب الله ودينه المنزَّل، هم أولوا الألباب فقط، ومن ثم فالجاهل بكون كتاب الله حقّاً، هو مُعَطِّلُ العقل والإدراك.

ب ـ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة]، وهاهنا بيَّن المولى الحكيم جلّ وعلا، أن أولئك المنصفين من النصارى ـ كما يدل عليه السياق ـ عند سَماعِهم لكتاب الله المنزَّل على رسول الله ﷺ فاضَتْ أعينُهُم بالدموع بُكاءً وخشوعاً، ثم أرجَعَ سبحانه وتعالى تأَثُّرهم وبكاءَهم ذلك، إلى معرفتهم بالحق المنزَّل على خاتم الأنبياء ﷺ، إذن: فالمعرفة الصّحيحة سبب الإيمان.

ج ـ كما أنَّ الله تعالى وَصَفَ أهلَ الكفر، بالجهل والجحود واتّباع الظن والوقوع في شَرَكِ الشك والرَّيب والتردُّد، فقد وصف أهلَ الإيمان باليقين والبصيرة في أكثر من آية، منها:

* ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص].

* ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة].

* ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة].

واليقين هو الإعتقاد الثابت الناشيءُ من العلم الصّحيح، أو هو العلم الرّاسخ الثابت الذي لا يَعْتَريْهِ الشكُّ والظنُّ والرَّيْبُ، ويَقِنَ الماءُ، أي ثَبَتَ وَرَكَدَ ولم يتحركْ[١].

وبما أنَّ الإِستماعَ لآيات الله، ثم التفاعلَ الإيجابيَّ معها، هو أساس

---

(١) يَقِنَ الشَّيءُ يَيْقَنُ يَقْناً ويقيناً: ثَبَتَ وتَحقَّق وَوضَحَ، فهو يَقَنٌ ويقين، أنظر: المعجم الوسيط، ص ١٠٦٦.

كسب العلم والمعرفة الصحيحة بدين الله، كما أن الإعراض هو أساس الجهل، لذا قد أثنى الله تعالى على أهل الإيمان، لكونهم سمعوا آيات الله وتفاعلوا معها، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ۝٧٣﴾ [الفرقان].

٥ ـ جذورُ الإيمان المرتبطة بالقلب هي: الإخباتُ، والخشوعُ، والخشية، والرِّضى، والفرح، والإستبْشار، وحُبُّ الله ورسوله ودينه، وحسنُ اليقين، والرجاءُ، والتوكّلُ، وذلك في مقابل جذور الكفر القلبية: الإستكبارُ، والإباءُ، والإشمئزازُ من ذكر الله، وحبُّ غيره كَحُبِّهِ، وكَراهيَّةُ كتابه ودينه، وسُوءُ الظَّنِّ به:

وقد استشهدنا من قَبْلُ لجذور الكفر القلبية، بآيات مباركات، وهذه بعض الآيات عن جذور الإيمان القلبية أيضاً:

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٣﴾ [هود].

* ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون].

* ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد].

* ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ . . .﴾ [الفتح: ٢٩].

* ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس].

* ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ . . .﴾ [البقرة: ١٦٥].

* ﴿. . . حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

* ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾ [الأحزاب].

* ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ [التوبة].

* ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران].

* ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ٢٢﴾ [الأحزاب].

* ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤﴾ [غافر].

* ﴿. . . رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

٦ ـ التصديقُ في إيمان المؤمنين، يقابِلُ التكذيبَ في كفر الكافرين، ولهذا كثيراً ما يُذكران في كتاب الله الحكيم مُقترِنَيْنِ، كَضِدَّين متعاكِسَيْ الإتجاه:

كما قال تعالى:

* ﴿۞ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ٣٢ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣﴾ [الزمر].

* ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾ [الليل].

ويشترك في كل من التصديق والتكذيب، العَقْلُ والقَلْب واللِّسان، لأَنَّ التصديقَ هو الإعتقادُ والإقرارُ بصدق الطَّرف المقابل، والتكذيب عَكْسُه، أي الإعتقادُ والإقرارُ بِكَذِب الطّرف المقابل.

٧ ـ الإقرارُ بالإيمان، وكذلك ذكرُ الله، وتسبيحهُ وتمجيدُه، وحمدُه وتعظيمُه، وتعظيمُ كتابه ودينه، وتوقيرُ رسول الله ﷺ والتأدُّبُ معه في الكلام، فكل هذه التعبيرات اللسانية وأمثالها في إيمان المؤمنين، تَتَقابَلُ عكسياً مع التعبيرات الكفرية، والسُّخريَّةِ والإستهزاءِ بالله، وآياته، ودينه، ورسوله ﷺ في كفر الكافرين:

وقد استشهدنا في السّابق ببعض الآيات، على كون الأقوال والتعبيرات الكفُرية والإستهزاء كفراً، وهذه بعض الآيات، دليلاً على أن أضدادَها وعكوسَها، تعتبر إيماناً، قال الله تعالى:

* ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة].

* ﴿. . .وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ. . .﴾ [الشورى: ١٥].

* ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾ [الواقعة].

* ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ [الأعلى].

* ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النصر].

* ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾ [الإسراء].

* ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ [الواقعة].

* ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ [الحجرات].

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب].

* ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح].

وكيفية دِلالَةِ هذه الآيات على أَنَّ الإقرارَ بالإيـمان، وذكرَ الله تعالى، وتسبيحَهُ، وحَمْدَه، وتـمجيدَهُ، وكذلك تعظيمَ كتابِهِ ودينـه، وتوقيـرَ رسول الله ﷺ والتأدُّبَ معـه، تدخلُ في مسمَّى الإيـمان، وتقع ضمن دائرته، بصورة عامة، هي: أن الله تعالى خاطَبَ رسولَ الله ﷺ خاصة، وأهلَ الإيـمان عامة، بأن يُحَقِّقُوا هذه الأشياء في أنفسهم، إذاً: هذه الأشياء مـمّا يقتضيها الإيـمانُ ويَسْتَلْزِمها.

٨ ـ السّـمع والطـاعة لله ورسوله ﷺ والإلتزام بشريعته، ممّا يُلازِمُ الإيمان ولا ينفك عنه أبداً، كما أنّ عَكْسَـهُ، وهو التولّي والإعراض، من لوازم الكفر:

والدليل على هذا هو: وَصْفُ الله أهلَ الإيمان بقوله: ﴿...وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٩ و ١٠ ـ كذلك الحكم بما أنزل الله تعالى، والتحاكم إلى شريعة الله والإستسلام لأحكامها، من لوازم الإيمان التي لا يمكن أن تَنْفَكَّ عنه ما دام الإيمانُ إيماناً، كما أن ضِدَّيهما (الحكم بغير ما أنزل الله) و(التحاكم إلى غير حكم الله وشريعته) من آثار الكفر وثماره اللازمة له:

قال جل وعلا بالنسبة لضرورة الحكم بما أنزل، والتحاكم إلى شريعته، كشرطين للإيمان: ﴿... فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ...﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة].

١١ ـ تولّي أهلِ الإيمان، وتجريدُ الوَلاء لهم، والبراءَةُ من أهل الكفر، لازمٌ آخر من لوازم الإيمان غير المُنفَكَّة عنه، كما أن عكسه، وهو موالاة أهلِ الكفر، من أسباب الكفر:

حيث قال سبحانه وتعالى بهذا الصدد: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة]، وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزخرف].

١٢ ـ إلتفافُ أهلِ الإيمان حول قيادتهم الشرعية، والتزامهم بأوامرها وتوجيهاتها، في كل الأحوال وخاصة في المُلِمّات وعند الأزمات، من لوازم إيمانهم، كما أن إطاعة القيادات الكافرة، والإئتمار بأوامرها كلّياً أو جزئياً، من قرائن الكفر وأسبابه:

حيث قال تعالى حاصراً الإيمان في الذين يلتزمون أوامر قيادتهم الشرعية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الثانـي

موضوع الإيمان

موضوع الإيـمان أو ما يُصْبِحُ الإنسانُ بالإيـمان به، مؤمناً، هو:

أولاً: الإيـمانُ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، كما قال تعالـى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ. . .﴾ [البقرة: ١٧٧].

ثـانياً: الإيمانُ بكلِّ الرسل والأنبياء وعدم التفريق بينهم: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ. . .﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ثـالثاً: الإيـمانُ بآيات الله الخَلْقية والأَمْرية، والتفاعُل معهـا والتـأَثُّر بـهـا: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان]، وأرى أن المقصود بـ(بآيات ربهم) هنا، هو كلٌّ من الآيات الخَلْقيَّة والأَمْريَّة، بدليل:

أن الله تعالى نفى كلاًّ من التصامم والتعامي تجاه تلك الآيات، عن عباده الذين عرَّفهم بـ(عباد الرحمٰن)، وإذا كان عدم التصامم، يقتضيه التفاعل والتأثُّر الإيجابيُّ مع آيات الله المقروءة المسموعة، فإن عَدَمَ التعامي، ضروري ولازمٌ للتأثر بآيات الله المخلوقة المنظورة.

ومن الواضح أنَّ كلمة (التذكير) تَصْلُحُ لكلا نوعي الآيات، بخلاف ما لو كانت كلمة: (وإذا سَمِعوا)، أو (وإذا يُتلى عليهم) في مكانها، إذْ كانت تختَصُّ حينذاك بالآيات المتلوة وحدها.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المبحث الثالث

مقارنة بين مكوّنات الكفر ومكوّنات الإيمان

والآن تعالوا تسهيلاً للفهم وتجلية للموضوع، نُجْري مُقارَنةً في جدول، بين كلٍّ من مكوِّنات الإيمان، ومكوِّنات الكفر، حَسْبَما تبيَّنت لنا من خلال ما تقدّم بَحْثُهُ، وأُنبِّه بدايةً أنَّني جَهَدْتُ نفسي أن أجمع كلَّ مكوِّنات الإيمان ومكوِّنات الكفر، في هذا الجدول، ولكن رُبَّما فاتَتْني بَعْضُها، ورحم الله مَنْ ذكَّرني بها ونَبَّهَني عليها، وكذلك يَجدُر بالذِّكر: أنَّني اقتصرت في أبحاثي السابقة حول مكوِّنات الإيمان ومكوِّنات الكفر، على الأشياء التي يُصْبِحُ الإنسانُ بكلٍّ منها على حِدَةٍ كافراً، وبمجموعها مجتمعة مؤمناً، وأما الثمار والآثار الأخرى، والتي لم أرها مكوِّناتٍ للإيمان، أو موجباتٍ للكفر، فلها شأنٌ آخر، وسنبحثها لاحقاً بإذن الله تعالى.

جدولٌ جامع لِمُكَوِّنات الإيمان، ومُكَوِّنات الكفر إجمالاً:

١ ـ ما يَتعلَّق منها بالعقل والإدراك:

مكوِّنات الإيمان	مكوِّنات الكفر
المعرفَةُ الصحيحة والعلم اليقيني البعيد عن الشك والظن والريب والتردّد، بكلِّ ما يَجِبُ الإيمان به.	أ ـ الجَهلُ بما يجب الإيمان به بسبب الإعراض عنه. ب ـ العِلْمُ بما يجب الإيمان به، مع الجحود وعدم الإقرار. ج ـ الظَّنُّ أو الشكُّ أو الريبُ أو التردُّدُ، تجاهَ ما يجب الإيمان به.

٢ ـ ما يَتعلَّقُ منها بالقلب (الأعمال القلبية الإيمانية والكفرية)

مكـوِّنات الإيمـان	مكـوِّنات الكـفـر
أ ـ الإستسلام والإخبات لله تعـالـى. ب ـ الخشوعُ والتـذلُّل لله تعالـى. ج ـ حُـبُّ الله تـعـالـى أشـدَّ الـحُـبِّ، وكذلك حُبُّ كلِّ ما أَمَر الله بحبِّه كلٌّ حَسْبَ مقامِهِ. د ـ الخشيةُ والخوفُ من الله تعالى. هـ ـ الـفـرَحُ والـسـرورُ بـفـضـل الله ورحـمَتِه المتمثِّلَيْـنِ في كتابه ودينه. و ـ حُسْنُ اليقين والرَّجاءِ بالله تعالى. ز ـ التوكُّل والإِعتمادُ على الله تعالى.	أ ـ التكبّر والطغيان على الله تعالى ودينه ونبيّه. ب ـ الإبـاءُ والإِمـتـنـاعُ عـن قبـول الـحـق والتسليم له. ج ـ كُـرْهُ دين الله تعالى وكُلِّ ما يتعلَّقُ به، وحُبُّ غير الله مثل حُبِّ الله تعالى. د ـ الفَرَح والإستبشار بالكفر. هـ ـ إشـمئزازُ القلب عند سَماع التوحيد، وذكرِ الله تعالى وتِلاوَةِ كلامه. و ـ سوءُ الظنِّ بالله تبارك وتعالـى(١).

٣ ـ ما يَتعلَّق منها باللِّسان والتعبيـر

مكـوِّنات الإيمـان	مكـوِّنات الكـفـر
أ ـ الإقرارُ بالإيـمان وبكلِّ ما يشـتـمل عليه الإيـمانُ. ب ـ تسبيـحُ الله وتـحـميـدُه وتـعظيـمُه وتـمجيدُه. ج ـ تعظيمُ كتاب الله ودِينِهِ وإكرامُهما. د ـ تـوقـيـر رسـول الله ﷺ وَتـعْـزيـرهُ والتأَدُّبُ معه.	أ ـ إجراءُ كلماتٍ وتعابيرَ كفريّة على اللِّسان، أو بأي وسيلة وطريقة تعبيـرية أخرى. ب ـ الإِستهزاءُ بالله تعـالـى، أو: ج ـ بكتابـه وآياتـه، أو: د ـ برسوله ﷺ.

(١) إنما جَعَلْتُ سوءَ الظن بالله، من جذور الكفر القلبية، مع أن الظن من عَمَل العقل، لأن إضفاءَ السُّوءِ أو الحُسْنِ على الأشياء، من عَمَلِ القلب الرافض الراغب، المُبْغِضِ المحب.

٤ ـ ما يَتعلَّق منها بالعقل (القوة الإدراكية) أو القلب (القوة الإدارية) أو اللِّسان (القوة التعبيرية)

مكوِّنات الإيمان	مكوِّنات الكفر
التصديقُ بالله تعالى خالقاً ورباً وإلهاً، وبمحمدٍ ﷺ نبياً ورسولاً، وبكلِّ ما جاء به خاتَمُ النَّبِيِّين من الله تعالى.	التكذيبُ بشيءٍ مِمّا جاء به محمدٌ ﷺ من الله تبارك وتعالى، مِمّا يُعْتَبَرُ الإقرارُ به شرطاً للإيمان.

٥ ـ ما يَتعلَّق منها بباطن الإنسان (العقل والقلب) أو بظاهره (اللِّسان والجوارح الأخرى)

مكوِّنات الإيمان	مكوِّنات الكفر
أ ـ السَّمعُ والطاعَةُ لله تعالى ورسوله، والذي يتمثَّل في الإلتزام بشريعة الله تبارك وتعالى، عموماً.	أ ـ التولِّي من طاعة الله ورسوله، وعدم الإلتزام بالشريعة بصورة كليةٍ، يعتبر كفراً ويَنْقُضُ الإيمان.
ب ـ الإتيانُ بما اعتبره الشرعُ شرطاً للإيمان كالصلاة والزكاة.	ب ـ تَرْكُ عملٍ معيَّن اشترطه الشارع في تكوين الإيمان، كإقامة الصلاة وإيتاءِ الزكاة.
ج ـ الحكمُ بما أنزل الله تعالى بشكلٍ أساسيّ في جميع جوانب الحياة.	ج ـ الحكمُ بغير ما أنزل الله تعالى ورَفْضُ حكم الله أساساً.
د ـ التحاكُمُ إلى شريعة الله وحُكْمِهِ لحلِّ المشاكل وفَضِّ النِّزاعات.	د ـ التحاكُمُ إلى غير شريعة الله.
هـ ـ مُوالاةُ المؤمنين وتجريدُ الولاءِ لأهل الإيمان من دون الناس.	هـ ـ تَولِّي أهل الكفر بدلاً من أهل الإيمان، أو خَلْطُ الوَلاءِ بصورة يعتبر كفراً.
و ـ إعلان البراءَةِ من كفر الكافرين، وإعلانُ العداوة مع مَنْ يُعْلِنون العداء منهم للإسلام والمسلمين.	و ـ إطاعَةُ أهل الكفر في القليل والكثير، فيما يُضادُّ الإيمان.
ز ـ إمتثالُ أوامِر القيادة الشرعية، وعَدَمُ الذَّهابِ هنا أو هناك خصوصاً في المُلِمّات، بغير إذنها.	

والآن في ضوء ما مَرَّ من أبحاث حول الإيمان والكفر، ننتقل إلى

تعريف كلٍ من الإيـمان والكفر، في الفصلين الخامس والسادس بإذن الله وتوفيقـه، ونبـدأ أولاً بتعريف الإيـمان، والذي هو بيت القصيد من هذا الفصل، ولـم نتطـرَّقْ إلـى البحث عن الكفر وحقيقـته ومكوِّناته، إلّا تـجليةً لوجه الإيـمانِ الـمُشْرِقِ الـمُضيء.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

الفصل الخامس

تَعْريف الإِيمان

ونُعَرِّفُ الإيـمانَ في ضَوءِ نورِ كتاب الله المُبيـن، بالتعريف الآتي:

الإيـمان:

(هو النورُ الذي يكتسِبُهُ الإنسانُ بتوفيق الله وتيسيره وهدايته، ومُسْتَقَرُّه القَلْبُ، ولكن ينعكس ضياؤه على باطن الإنسان، فَيُثْمِرُ فيه اليقينَ والطُّمَأْنينةَ والتصديقَ، وكذلك يَنْعكِسُ على ظاهِره فَيُزَيِّنُه بالإقرار والسمع والطاعة والإتِّباع، ويجعله متحلِّياً بالفضائل النفسية والخُلُقية، كالشمس التي تُضِيءُ بِأَشعَّتها ما حولَها وما بَعُدَ عنها).

والآن نَشْرَحُ هذا التعريف، كلمةً كلمةً في نقاطٍ متسلسلة:

١ ـ (الإيـمان هو النـور):

وإنـما سـمَّينا الإيـمان نوراً، اقتباساً من كثير من آيات الله التي استَعْمَلَت لفظ (النور) للتعبير عن الإيـمان وعن الهداية إليه، وعن كتاب الله الذي يحتوي على الهداية ويُعَرِّفُ بالإيـمان وحقائقه، وعن رسول الله ﷺ الذي يهدي الناس بإذن الله إلى صراط الله المستقيم، وهذه بعض الآيات كأمثلـة:

أ) بالنِّسـبة للإيـمان:

١ ـ ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ

كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ...﴾ [الأنعام: ١٢٢].

٢ ـ ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ...﴾ [البقرة: ٢٥٧].

٣ ـ ﴿... كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ...﴾ [إبراهيم: ١].

ب) بالنِّسبة للقرآن:

١ ـ ﴿...قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

٢ ـ ﴿...مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا...﴾ [الشورى: ٥٢].

٣ ـ ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا...﴾ [التغابن: ٨].

ج) بالنِّسبة للنبيِّ ﷺ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب].

٢ ـ (الذي يَكْسِبهُ الإنسانُ بتوفيق الله وتيسيره وهدايته):

هنا أُسْنِدَ الإيمان وحُصولُهُ الى مَصْدَرَيْن اثنين:

أولـهما: كَسْبُ الإنسانِ وعَمَلُه وبَذْلُهُ الجُهْدَ، وسَعْيُهُ في تَحْصيله، وقد نسب الله تعالى في كتابه الحكيم كلَّ أعمال الإنسان إليه هو، خيراً كانت أو شراً، واستعمل كتاب الله كلاً من ألفاظ:

(العمل) و(الكسب) و(الفعل) و(السَّعي) و(الجُهْد) و(الكَدْح) و(الإقتراف) و(الإجتراح) للتعبير عن نشاطات الإنسان وأعماله، كما هو واضح في هذه الآيات المباركات:

١ ـ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ...﴾ [فصلت: ٤٦].

٢ ـ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ...﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٣ ـ ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء].

٤ ـ ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم].

٥ ـ ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ...﴾ [العنكبوت: ٦].

٦ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق].

٧ ـ ﴿...وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ...﴾ [الشورى: ٢٣].

٨ ـ ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية].

ولكن لم يستعملْ كتابُ الله الحكيم لفظ (الخلق) لأفعال الإنسان، كما كانت المعتزلة يستعملون لفظ (الخلق) لأفعال الإنسان، تأكيداً منهم على كون الإنسان صاحِبَ أعمالِهِ، وكردٍّ فعلٍ للجبرية الذين كانوا ينفون عن الإنسان أيَّ تأثيرٍ في أفعاله!

وكانت الجَبْريَّةُ تريدُ بذلك التأكيد على إرادة الله الشاملة وقدرته وخالقيته، كما أن المعتزلة كانت تريد بصنيعها ذلك، التأكيد على عَدْل الله وحكمته، وفي نفس الوقت حُرِّيةِ الإنسان واستقلالِهِ في أعماله! ونحن هنا لا نريد الخَوْضَ في موضوع القدر، والأسباب التي أدَّتْ بالمعتزلة والجبرية إلى الإفراط والتفريط، ولكن نقول باختصار:

إنه لا يَضْطَرُّنا التأكيد على إرادَةِ الله المطلقة وقدرته الشاملة وخالقيته، إلى نفي إرادة الإنسان، وتَصَوُّرِهِ عاجزاً مشلولاً مُجْبَراً، كما أن الإعتقاد بحرية الإنسان وتأثيره في كسب أعماله، لا يُحْوِجُنا إلى إطلاق لفظ (خالق أفعاله) عليه! والموقف الصحيح هو أن نَتَّبِعَ كتابَ الله الحكيم، ونُثْبِتَ لكل من الله الخالق تبارك وتعالى، وللإنسان المخلوق، ما وصفهما به كتابُ الله من أوصاف، هذا من حيث المبدأ، وأما الشرح والتوضيح، فَتَكَفَّل به المبحث المختصر الذي نختم به هذا الباب الثاني، وكذلك أبحاث أخرى في الفصل الثاني من الباب الثالث.

ومن الواضح أنَّ أعمالَ الإنسان وتصرُّفاته، إنما هي كَسْبيَّةٌ وجَعْلية وتغييرية، في إطار المخلوقات التي خلقها الله تعالى وأبدعها، والقوى والطاقات الروحية والذهنية والبيانية والجسمية التي يزاول بها نشاطاته، هي كذلك مخلوقة لله تعالى وعارية مستردَّة، إذاً: لَيْسَتْ أعمالُ الإنسان وتصرفاته في الخلق في شيءٍ، وَسَنَزِيدُ هذا الموضوعَ إيضاحاً، عند الحديث عن خالقية الله تبارك وتعالى، في الفصل الثاني من هذا الباب ـ أي الكتاب الثالث من هذه الموسوعة ـ بإذن الله تعالى.

ثانيهما: توفيق الله وتيسيره وهدايته، ومعنى التوفيق، هو جعل الهدف متحقّقاً وفق المراد[١]، والتيسير تفعيل من (اليُسْر) وهو التسهيل[٢]، والهداية هي الدلالة على الشيء والتبصير به[٣]، وقد بيّنّا في السابق مُسْتشهدين بالآيات المُبارَكة، أن الإِيمان لا يَتِمُّ للإنسان إلّا بإذن الله وتيسيره وهدايته، سواءٌ من حيثُ حصولُ نورِه في القلب، أو من حيثُ بيانُ حقيقتِهِ ومكوِّناته، وكيفيةُ الوصول إليه، وموضوعُهُ الذي يتعلَّق به، فالأول من خلال تسديده وهدايته وتيسيره، والثاني من خلال وحيه وهداه، وهذه بعض الآيات التي تتحدّث عن (التوفيق) و(التيسير) و(الهداية) من حيث كونُها من الله تبارك وتعالى:

أ) التوفيق:

١ ـ قال تعالى على لسان عبده ونبيِّه (شعيب) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿...وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾: [هود: ٨٨].

٢ ـ وقال في معرض الحديث عن كيفية حلِّ مشاكل الزوجين، بعد أن يَسْتَعْصي عليهما الحل بجهودهما الذاتية، وإرسال حَكَمَيْن يُمَثِّلان الطرفين: ﴿...إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ...﴾ [النساء: ٣٥].

(١) المعجم الوسيط، ص ١٠٤٦، ١٠٤٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٦٤، ١٠٦٥.
(٣) المصدر نفسه، ص ٩٧٨.

ب) **التيسير**:

١ ـ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل].

٢ ـ ﴿... سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وهذان التيسيران خَلْقيّان قَدَرِيّان، وهناك تيسيرٌ شرعيٌّ أَمْريٌّ، كما قال تعالى:

٣ ـ ﴿... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾ [البقرة: ١٨٥]، إذْ هذه الآية تتحدّث عن تيسير الله تعالى على الصائم بإعطائِهِ رُخْصَةَ عَدَمِ الصِّيام، عندما يكون مريضاً أو مسافراً، وكذلك عندما لا يَقْدِرُ على الصِّيام الاّ بِجُهْدٍ كبيرٍ ومَشَقَّةٍ بالِغةٍ.

ج) **الهداية**:

١ ـ ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة].

٢ ـ ﴿... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

والمقصود بالهداية في هاتين الآيتين، هو الهداية الشرعية التي تأتي عن طريق الوحي.

وهناك هداية قَدَرية كَوْنيَّة، كما قال تعالى:

٤ ـ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت].

٥ ـ ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى...﴾ [مريم: ٧٦].

وخلاصة القول:

أن الإنسانَ يُحَصِّل الإيمانَ بِكَسْبِه وسَعْيِهِ هو، ولكن كَسْبُهُ لا يُثْمِر شيئاً، من دون توفيق الله وتيسيره وهدايته الشرعية والقَدَريَّة، وقد جعل سبحانه هدايَتَه الشرعية الأَمْريَّة المُيَسَّرَة في متناول الجميع، وكذلك وَعَدَ كلَّ

مَنْ يُتْعِبُ نَفْسَهُ في سبيل الله، ويبذل الجهد، أن يهديه ويعينه ويُيَسِّرهُ ويُيَسِّر له أَمْرَهُ.

٣ ـ (ومُسْتَقَرُّه القَلْبُ):

وقد استشهدنا على هذا الموضوع بآيات مباركات في السابق، فلا نُعيدُ ما قلناه سابقاً، ولكن أرى توضيح مسألة: (سبب تخصيص القلب بالإيمان) ضرورياً، إذْ ربّما يسألُ سائلٌ: ما هي حكمة تخصيص الله تعالى القلب بالإِيمان، من حيث كونه محلاً له، مع أن للعقل والإدراك وكذلك اللسان وسائر الجوارح أيضاً دوراً فيه؟!

والجواب:

أنَّ القلب الذي هو مركز الإرادة الراغبة والرافضة والمُحِبَّة والمُبْغِضَة، هو الذي يتبنَّى القضايا التي يعتقدُها الإنسانُ، حقّاً أو باطلاً، إذْ لا يتحَوَّلُ عِلْمُ الإنسان وإدراكُهُ، سواءٌ كان صواباً أو خطأً، إلى اعتقادٍ، ومِنْ ثَمَّ إلى عملٍ وسلوكٍ وممارسة، إلّا بعد أن ينتقل من العقل إلى القلب، ويَقْتَنِعُ القلْبُ به، ويَرْغَب فيه ويحبّه، ثم يَتَبنّاه ويُجَسِّده عملاً وتصرُّفاتٍ ومواقِف، وأبْسَطُ مثالٍ كمصداقٍ لهذه المسألة هو: أن كثيراً من الناس يعلمون عِلْمَ اليقين، أنَّ التدخين يَضُرُّهم ويُمرِضُهُمْ، ولكنَّهم لا يكفُّون عنه! وكذلك شاربوا الخمر، والمقامرون، والسرّاق، والزناة...الخ يعلمون العواقب الوخيمة التي تنتظرهم، من جرّاء إتيانهم لتلك الآثام والفواحش، التي حرَّمها الله تعالى أشدَّ التحريم، ولكنَّهم لا يجتنبونها! وليس سبب تلك الحالة العجيبة، إلّا أَنَّ الإنسانَ بالإضافة إلى العقل والإدراك الذي يكشف له المضّار والمنافع والقُبْحَ والحُسْنَ ـ في كثير من الأحيان ـ، يمتلك كذلك القَلْبَ الذي يحبّ به الأشياءَ أو يُبْغِضُها، ومن ثَمَّ يَقْبَلُها أو يَرْفُضُها.

وباختصار:

فالقلب هو وحده مركز التصميم والإرادة والإِختيار واتِّخاذِ القرار.

ولكن هذا لا يعني: نفي دور العقل في عملية تحصيل الإيمان، إذ

لولا العقل وما يجمعه من علم شرعيٍّ صحيح، كيف يتسنّى للقلب أن يتبنّى الإِيمانَ وعلى أيِّ أساس!!

وبالإضافة إلى هذا، فقد استعمل كتابُ الله الحكيم لَفْظَ (القلب) في مواضع بمعنى العقل أو قوَّة الإدراك، مثل قوله تعالى:

* ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج].

* ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا...﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والحكمة في جعل الله الحكيم الإنسانَ غيرَ مُلْزَمٍ بحكم العقل والعِلْمَ المخزون فيه، هي:

أن الله تعالى خلق الإنسان للإبتلاء والإمتحان، كما بينّاه في الباب الأول، ولهذا فقد أعطاه إرادةً حُرّةً مستقرُّها القلبُ، يفعل بها ما يشاءُ ويختار بها ما يريد، سواءٌ كان موافقاً لعقله وعلمه أو مخالفاً، إذ قد يحصل للإنسان علمٌ بدون اختيار، ورغماً عن إرادته، لذا لَيسَ الإنسان حرّاً حريةً تامةً، تجاه أحكام عقله ومعلومات ذهنه، ولكنه حرٌّ حرّية كامِلةً تجاهَ كيفية التصرف بتلك الأحكام العقلية والمعلومات الذهنية، هل يُعيرُها اهتمامَهُ، ويلتزم بها أم لا!

فالعقل وإن كان مملوءاً بالعلم الصحيح، واليقين الجازم، عن موضوع ما، ليس هو الذي يَحْسِمُ الموقِفَ تجاهَه بالقبول أو الرفض، لأنَّ اتّخاذَ القرار ليس في دائرة صلاحياته وقدراته التي هي مُنْحصرة في الكشف والإِطّلاع، وموقف الرفض الجُحوديِّ لآل فرعون تجاهَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبيّناته الواضحة، دليل ساطِعٌ في هذا المجال، إذْ كان فرعون وحاشيته مستيقنين بصدق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وصِحَّةِ معجزاته، ولكنهم بالرغم من يقينهم ذلك، اختاروا الكفرَ ورفضوا الإيمانَ، بدافع الكبر والظلم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل]، وهذا هو موقف جميع

الطواغيت العارفين للحق بعقولهم والرافضين له بقولهم، فأبو جهل (عمرو بن هشام) لمَّا سُئِلَ عن سبب عدم إيمانه بمحمَّدٍ خاتم النبيين ﷺ أهُوَ عَدَمُ اعتقاده صدِقَ (محمد) في دعواه؟! قال: كلّا إنّ محمَّداً صادقٌ في دعواه، كيف وهو لم يُسْمَعْ منه كذِبٌ مع الناس إلى أن بلغ سِنَّ الأربعين، أفَبَعْدَ أن جاوَزَ الأربعين، يكِذبُ باسم الله؟!

ثم بيَّن سبَبَ كفره به، بأنه كانت قبيلتا (بني عبد الشمس) ـ التي ينتمي إليها أبو جهل ـ (وبني هاشم) التي ينتمي إليها رسولُ الله ﷺ، كَفَرَسَيْ رِهانٍ في مُنافستهما فيما بينهما... والآن كيف يَتَّبعُ هو محمّداً الهاشمي، ومِنْ ثَمَّ تصبح قبيلته تابعة لقبيلة بني هاشم؟![1].

وههنا مسألة أَوَدُّ التنبيه عليها، إذْ لها ارتباط وثيق بما نحن بصدد بحثه، كون الإيمان قضية قَلْبيَّة وإرادية بالدرجة الأولى، وهي:

أن كثيراً من علماء الكلام في الأعصر الأخيرة، بل ومنذ القرن الرابع الهجري إلى يومنا هذا، ومن جرّاء انحسار مفهوم (الإيمان) عندهم ـ بعد شموله وسَعَتِهِ ـ في دائرة المعرفة الذهنية والإقرار اللِّسانيِّ، شَرَعوا يستعملون كلمة (التصديق) كبديل ومُرادِفٍ لكلمة (الإيمان)، وكثيراً ما ضَيَّقوا مفهوم (التصديق) أيضاً وحصروه ـ كما قلنا ـ في المعرفة الذهنية والإقرار اللِّساني، وجرّدوه من الأعمال القلبية، التي هي لُبُّ الإيمان وأساسه!

والقاريءُ لكُتُبِهِم يَشْعُر بوضوح أنهم لا يقصدون بتعبير (الإيمان بالله) سوى الإعتقاد بوجوده خالقاً ورباً ومالكاً! لِذا أصبحوا لا يذكرون في كتبهم الكلامية التي خُصِّصتْ ـ في الأصل والبداية ـ لتوضيح قضايا الإيمان والعقيدة والدفاع عنها، أمام هجمات الملاحدة والزنادقة، وأهل الكتاب

(١) (السيرة النبوية) لابن هشام: ج١ص١٥٩، و(صحيح البخاري) كتاب بدأ الوحي:٦، و(مسند الإمام أحمد (٢٠٢/١). وأسباب النزول، للنيسابوري، ص ١١٩ وتفسير الطبري، ج٧ ص ١١٥.

والفلاسفة، والملل الأخرى، وأهل البدع، نعم بَدأوا لا يذكرون في كتبهم تلك، وعند الحديث عن التوحيد والإيمان بالله، إلّا قضية وجود الله الخالق وإثباته، ودَحْض الأفكار المناوئة للإسلام والتوحيد، والردِّ على شبههم وأفكارهم الضالَّة والمنحرفة في هذا المجال فَحَسْبُ!!

وكتب (علم الكلام) طافِحَةٌ بما أقول وشاهِدَةٌ عليه، وأذكر منها على سبيل المثال، ما هو أكثر استشهاراً ورواجاً وهو كلٌّ من كتاب:

١ ـ (شرح العقائد النسفية).

٢ ـ (شرح المواقف في علم الكلام).

٣ ـ (تهذيب الكلام).

وأُشيرُ في هذا المجال إلى أحد أقوال مُفسِّرٍ كبير وذائع الصِّيت، وهو (فخر الدين الرازي) رحمه الله تعالى صاحب كتاب (مفاتيح الغيب) المشهور بـ(التفسير الكبير)، إذ يقول الرازي رحمه الله تعالى ـ حسبما أتذكر ـ في تفسيره لآيات بداية سورة (غافر) وبالتحديد في تفسير الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾، فعند تفسير قوله تعالى ـ عن الملائكة الحاملين للعرش والمتواجدين حوله ـ [﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾] ـ أي والملائكة الحاملون للعرش والمُلْتَفُّون حولَه يؤمنون بالله ـ، يَنْقُلُ الرازي قولاً لـ(جار الله الزمخشري) رحمه الله صاحب التفسير المشهور بـ(الكشَّاف) ويُبْدي إعجابَهُ الشديد بهِ، والذي يتلخَّصُ فَحْواه في أنَّ قولَهُ تعالى عن الملائكة: [﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾] يدلُّ على أنَّ الملائكة أيضاً لم يَرَوْا ولا يرون الله تعالى، إذ لو كانت الملائكة يرون الله تعالى، لم يكن في إيمانهم بالله، كبيرُ أهميةٍ، كي يمدحهم الله تعالى به!![1]، ومن الواضح أن الزمخشري المعتزلي، إنَّما يريد أن يُدَعِّم بقوله واستنباطه هذا، مُعْتَقَدهُ الإعتزاليَّ القائل: (إنَّ الله تعالى لن يُرى لا في الدنيا ولا في الآخرة)، والآن لا نريدُ التطرُّق

---

(١) انظر: التفسير الكبير، للرازي، ج١٤ ص٣٠، ٣١.

إلى الردِّ على هذا المُعْتَقَدِ الخَطَأ، ولكن الذي أريدُ أن أُعَلِّق به على هذا الموقف للإمام الرازي رحمه الله، هو:

أن الرازي وكذلك الزَّمَخْشـري وكثيرين غيرهـم[1]، بما أنه اختُصِرَ مفهومُ الإيمان بالله تعالى عندهم، في الإعتقاد بوجوده خالقاً ورباً، كانوا يتصوّرون أنه ليس للإيـمان بالله تعالى معنىً ومفهومٌ سوى الإعتقادِ بوجوده وخالقيته وربوبيته، ثم استنتجوا من هذا التصوّر الخطأ لمفهوم الإيـمان، أَنَّ مَدْحَ الله للملائكة بسبب إيـمانهم به، دليلٌ على أنهم لا يرونه، إذْ من يرى شَـيْئاً ويُعـايِنُهُ، لا يُمْدَحُ بسبب إيـمانِهِ به!

وفـات هـؤلاء الأفـاضـل ـ غـفـر الله لـنـا ولـهـم ـ أن قـضـيـة الإعـتـقـاد بوجود الله وخالقيته وربوبيَّتـه، مـمّا تشترك فيه المِلَلُ والطوائِفُ جميعُها، وهي ـ كما فَصَّلْـناها في الفصل الأول من الباب الأول ـ من القضايا التي فَطَر الله الناسَ عليها، ومن القضايا البديهية التي تَشْهَد بها بدائِهُ العقول، ولم يعتبـر كتابُ الله الخبيـرُ بالناس، والعليمُ بِفِطَرِهم وعقولِهم، قضيَّةَ الإعتقادِ بوجود الله، وكونِهِ خالقاً وفاطراً للسموات والأرض، مشكلة فكرية للبشـر، بل اعتبـرها قضية مسلَّمة وبديهية، فعلى سبيل المثال، يقول جل وعلا: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ...﴾ [الـرعـد: ١٦]، ويـقـول: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وجليٌّ أن تَأَثُّرَ أولئك العلماء بالفلسفة عموماً، والفلسفة اليونانية خصوصاً، والتي كانت تعتبـر الثقافة الأجنبيـة الرائجـة في ذلك العصر ـ كما أن هناك في عصرنا الحالي بعض الأفكار والتيارات الثقافية والسياسية والشرقية والغربية الرائجة ـ، كان له أبلغُ الأَثَرِ في أن يَنْحوا ذلك المنَحْى، ويُجرِّدوا الإيمانَ من كل مكوِّناتِهِ القلبية وآثاره وثماره العَمَلية، ويَحْصِرُوه في دائرة الذِّهن وحده، وكأَنَّهم رحمهم الله وإيانا، كانوا غافلين عن أنه إذا ما أصبح الإيمانُ مجرَّد الإعتقاد بوجود الله وكونه خالقاً وربّـاً، فحينئذٍ يتساوى المسلمون في اعتقادهم في الله تعالى مع (إبليس) الذي لم يَرْتَبْ قطُّ في

(١) وانْظر: روح المعاني، ج٢٤ ص٤٠٣، للآلوسي والذي فَسَّر الآية المذكورة نفس التفسير!

هذه القضية، كيف وقد حاوره الله العظيم وجادَلَه هو بالباطل! وكذلك يتساوون مع آل فرعون المستيقنين بصدق موسى عليه السلام، وأبي جهل الـمُسْتَيقِنِ بصدقِ محمد ﷺ، ومعلوم أن المشركين لم يجادِلوا قطُّ في قضية وجود الله وخالقيته وربوبيَّته!

ولكنَّ الأَمر ليس كما تصوّروا، بل شأْنُ الإيـمان أجَلُّ من ذلك وأكبر، كما بيّناه وبيَّنه قبلنا العلماءُ المحقِّقون والأئمة الراسخون في العلم رحمهم الله تعالى، ونحن في هذا نقتفي آثارَهُم المباركة ونـهتدي بـهديهم ـ في ضوء كتاب الله تعالى ـ وجزاهم الله أحسن الجزاء.

إِذن:

فالمقصود بإيـمان الملائكة بالله تعالى، هو كلُّ ما يشتمل عليه لَفْظُ الإيـمان من مفاهيم، كما بينّاه في السابق من: استسلام لله تعالى، وحُبٍّ وتعظيم، وإجلالٍ، وطاعةٍ، وتقديس، وخشيةٍ، وتوكّلٍ...الخ، ولَيْس فقط الإعتقاد بخالقيته، والذي يشارِكهُم فيه حتى شِرارُ الخَلْق، مثل إبليس وفرعون وأبو جهل، كي تُؤَثِّرَ فيه رؤيةُ الله تعالى أو عَدَمُها!

٤ ـ (ولكن ينعكس ضياؤه على باطن الإنسان، فيُثْمِرُ فيه اليَقِينَ والطُّمَأْنينةَ والتصديقَ):

أجل إن الإِيمانَ وان كان مَحَلُّ استقراره هو القَلْبُ، كما تحدّثنا عن هذا الموضوع في السابق واستشهدنا بالآيات المباركات، ولكن ينعكس ضياؤه على روح الإنسان كلِّها، وكنتيجة لذلك يَحْصُلُ للإنسان كلٌّ من اليقين والطمأنينة والتصديق.

واليقين(١) ـ كما أرى والله تعالى هو العليم الحكيم ـ عبارة عن

(١) عرَّف الجرجاني (اليقين) بعدَّة تعريفات، منها: (في اللغة: العلم الذي لا شكَّ مَعَهُ وفي الإصطلاح: إعتقاد الشيء بأنه كذا مع اعتقاد أنه لا يمكن إلّا كذا مطابقاً للواقع غير ممكن الزوال)، وقيل: (اليقين: رؤية العيان بنور الإيمان) وقيل: (اليقين: إرتفاع الريب في مشهد الغيب)، التعريفات: ص ٢٥١.

التوافق الحاصل بين العقل الحاوي للعلم، والقلب المشتمل على الإرادة، فيصير علمُ الإنسان نتيجة ذلك التوافق: عِلماً حضورياً شهودياً، ويُصْبِحُ الإنسان المُوقِنُ عاملاً بعِلْمِهِ ومتحرِّكاً وفقه، ويزول الإنفصال بين العقل والقلب، بل يَتَّحِدان ويتّجهان وجهة واحدة.

والطُّمَأْنينَةُ عبارة عن السّكون[1] والهدوء والسرور الذي يُخَيِّمُ على القَلْب والروح، من جرّاء تنوّرهما بنور الإيمان، وارتباطهما بالله تعالى والشعور برحمته وفضله ولُطْفهِ وقربه، مع جلالِهِ وَعَظَمَتهِ وعُلوِّه.

والتصديق يجمع بالإضافة إلى اليقين والطمأنينة المرتبطين بالعقل والقلب، إقرارَ اللِّسان أيضاً.

وبما أننا في السابق تحدَّثنا عن هذا واسْتشهدنا بالآيات الدالة عليهِ، فلا نرى داعياً للإعادة، ولكن أرى من الضروري أن نعرِّف بـ(باطن الإنسان) وما يحتوي عليه مفهومُهُ من المحتويات، فأقول:

نقصد بـ(باطن الإنسان) جانِبَهُ المعنويَّ المَخْفيَّ، وقد أَخَذْنا هذا التعبير من قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ...﴾ [الأنعام: ١٢٠]، إذ من الواضح أن الإثم الظاهر، هو ما يقترفه الإنسانُ بِبَدَنه وأعضائه الظاهرة، والإثم الباطن، هو ما يقترفهُ بروحه وقَلْبِهِ وقِواه المخفية المعنوية، وقد استعمل كتاب الله الكريم كلاًّ من:

الروح، النفس، القلب، الفؤاد، اللُّبّ، الحِجْر، النُّهْية، الحُلُم، للتعبير عن الجانب المعنوي للإنسان، إذاً: لا بدّ من أن نُلْقي الضوء على مفاهيم هذه الألفاظ:

١ ـ (الروح):

أمّا الروح فقد كفانا الله تبارك وتعالى مؤنة إتعاب النفس للإطّلاع

(١) المصباح المنير، ص١٩٦.

عليها، حيث قال إجابة عن السؤال الذي وجّه إلى رسول الله ﷺ بخصوصها:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

إذاً: لا طمع في دَرْكِ حقيقة الروح وكيفيتها، إذ هي أمرٌ ربّانيٌ خاص به، والبشر لا يمكنهم بعلمهم المحدود القليل الوصول إلى معرفة كُنْهِها.

٢ ـ (النفس):

وأمّا النفس فبما أنَّ الله تعالى أخبرنا ـ كما بيّناه في الفصل الثالث من الباب الأول ـ أنّه خلق كلاً من (آدم) عَلَيْهِ السَّلَامُ وذرِّيَّتِهِ من بعده، من شيئين اثنين وهما: الطِّين والرّوح، لِذا فالإنسان ليس سوى جسمه الترابي وروحه الربّاني، وبناءً عليه: فالنفس يجب أن تُرجِعَ بِنَسَبِها إلى الروح، وذلك لأنها ليست جسماً يحس به، فهو من الشق الآخر لوجود الإنسان، وهو الروح، ولكنه أيضاً لا بدّ من وجود اختلاف بينهما.

والملاحظ أن الله تعالى لم يذكر الروح في كتابه لا بِمَدْح ولا بِذَم، ولكنّه أطلق كليهما على النفس، حيث مدحها حيناً، وذمَّها حيناً آخرً، بحسب أوصافها المختلفة، كما قال تعالى:

١ ـ ﴿...إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]، وهذا الكلام قول (يوسف) النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ وإنما قال ذلك بسبب همِّها بامرأة عزيز التي دَعَتْه إلى نَفْسِها، فَخَطَر في نفسه خاطِرُ سوء، ولكن ما لَبِثَ أن زال عنه بسبب إيمانه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦۚ...﴾ [يوسف: ٢٤].

إذن:

هنا وصف (يوسف) عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفْسَهُ بأنَّها كثيرة الأمر بالسّوُءِ، وإذا كانت

نفس يوسف نبـيِّ الله، الطاهر والعفيف، بـهذه الـمثابـة، فما بالك بنفوس الآخرين!

٢ ـ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس].

وهذا يفهم منه أن النفس هي الرّوح ذاتـُها، ولكن سُمِّيَتْ نَفْساً بعد تَلَبُّسها بالبدن، وإنـما وجِّه لـها الـمدحُ تارةً، والذمُّ تارةً أخرى، لأن الروح بعد دخولها البَدَن، يتَـأَتَّى منها كلٌّ من الخير والشر، ويوجّه له المدح أو الذم بحسب ذلك، ولكن قبل الدخول في الجسد ليست كذلك.

إذن:

الروح مثل فارسٍ اتَّخذ الجسم مَرْكَباً ووسيلةً، فـإذا تـحـرَّكَتْ به نحو الخيـر، مُدِحَـتْ، وإنْ تـحرَّكَتْ نـحو الشـرِّ، ذُمَّـتْ، وما دامـت فـي الجسد تسمَّى نفْسـاً، ولكن بعد خروجها منه يعود إليها اسـمها السابق، كما جـاء في الحديث النبوي: «**إِنَّ اَلرُّوحَ إِذَا قُبِضَ، اتَّبَعَهُ الْبَصَرُ**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: ٩٢٠)

هذا بالنسـبة للروح والنـفس.

٣ ـ القـلب:

القلبُ كما يبدو في استعمالات كتاب الله تعالى له، إسمٌ لجانب الإرادة والتصميم واتِّخاذ القرار في الرّوح، أي إن القلب أيضاً هو الروحُ، ولكن باعتبار جانبها الإراديّ، ومن الواضح وضوح الشمس أن موطن هذا الجانب من الروح ومركزه هو الصَّدر، وهذا شيءٌ محسوسٌ، قال تعالـى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢]، وليس المقصود بالقلوب هنا ـ وفي كلِّ مكانٍ آخر في كتاب الله تعالى ـ القِطْعَةَ اللَّحمية الصنوبريَّ الشكل، نعم قد توجَدُ رابطة بيْن القلبْ المعنوي والقلب اللَّحمي، ولكن الإنسان يحسّ بوضوح، أن القلب المعنوي موجود في الصّدر كلِّه، لا في القلب فقط.

٤ ـ الفـؤاد:

والفؤاد، وإن ظنَّه أكثرُ أهلِ العلمِ وعَدُّوهُ لَفْظاً مُرادِفاً للقَلْبِ، ولكنَّ الذي بدا لي بعد تدبّري لكتاب الله، هوَ:

أنَّ الفؤاد إسمٌ لجانب الإدراك والمعرفة في الروح أي العقل، ومن الواضح أنَّ مركز هذه القوّة الإدراكية، هو الدِّماغ الذي هو في الرأس، أي أن الدِّماغَ هي الآلة التي تستعْمِلُها الروحُ لكسب العلم والمعرفة، وقبله للتفكير والتحليل والإستنتاج.

ودليلي في كتاب الله الحكيم هو: استعمالُ كلٍّ من المدح والذم للقلب، بحسب اختلاف حالاته من التوجّه نحو الخير أو الشر، كما قال تعالى:

١ ـ عن الكفّار المكذِّبين: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين].

٢ ـ وعن المنافقين المخادِعين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا . . .﴾ [البقرة: ١٠].

٣ ـ وعن قُساةِ القلوب: ﴿. . . فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ . . .﴾ [الزمر: ٢٢].

٤ ـ وعن الذين يتَّبِعون متشابهات القرآن: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ . . .﴾ [آل عمران: ٧].

هذا بالنسبة لذمِّ القلوب المريضة الفاسدة، وأمّا بالنسبة لمدح القلوب الطَيّبة السليمة، فقال تعالى:

١ ـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

٢ ـ ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات].

٣ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . .﴾ [الأنفال: ٢].

٤ ـ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ. . .﴾ [الحديد: ١٦].

هذا بالنسبة للقلب، ولكن بالنسبة للفؤاد، لم يوجّه إليه مَدْحٌ ولا ذم، بل أُكِّدَ في أكثر من آية في كتاب الله، على أن الفؤاد مثله مثل السمع والبصر، نِعْمة من نعم الله تعالى التي أعطاها للإنسان، لكسب العلم والمعرفة وللإطّلاع على الحق والصواب، والباطل والخطأ، من الأديان والأفكار والآراء، وهذه بعض الآيات التي تتجلّى فيها هذه الحقيقة كالنّهار:

١ ـ قال تعالى مُنَوِّهاً بشأن الفؤاد (العقل) وأنه مع السَّمع والبصر، ثالثة الأثافي لكسب العلم والمعرفة: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل].

٢ ـ وقال كذلك تنبيهاً على أن كلاًّ من السمع والبصر والفؤاد، ستجري المُساءَلَةُ عنها والمحاسبةُ عليها: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

٣ ـ وقال جلّ وعلا عن قوم عادٍ الهالكين، الذين لم يستجيبوا لنداء أخيهم الناصح الأمين (هود) ﷺ، وأَرْجَعَ سبب هلاكهم إلى عدم استعمالهم سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم، والتي بالنتيجة كأنّهم لم يمتلكوها: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف].

وإنَّما وجِّه المَدْحُ أو الذم إلى القلب، لكونه مركز اتخاذ القرار والتصميم، وينبوع الحُبِّ والبغض، والقبول والرفض، والإقدام والإحجام، نحو الخير والشرِّ، ولكن الفؤاد (العقل) ليس سوى آلة الكشف والإدراك، ومن الواضح أن العلم والإدراك بوحده، إذا لَمْ يُبْنَ عليهما خيرٌ أو شرٌّ، فلا يستحقان المدح ولا الذم، إذ هو سلاح ذو حدَّين ووسيلة لا غير، وإنما الوسائل بمقاصدها التي تتحقّق بها، فمن استعمل فؤاده في وظيفَتِهِ

الفطرية، واستفاد منه لفعل الخير، فهو قد شكر نعمة الله، ومن أهمل فؤاده أو ٱستخدمَهُ لنيل أغراضٍ شِرِّيرة، فقد كفر النعمة، إذن: فالإنسان يُمْدَح ويُذَمُّ بِحَسَبِ كيفية استعماله لفؤاده، ولكن الفؤاد في ذاته ـ وكذلك السمع والبصر ـ لا يُمْدَح ولا يُذَمُّ، وذلك لأنَّ المدْحَ والذَّمَّ إنما يتوجّهان لصاحب الإرادة، أما حيث لا إرادة ولا اختيار، فلا مَدْحَ ولا ذَمّ.

٥ و٦ و٧ و٨ ـ وأمّا كل من (النُّهْيـة) و(اللُّبِّ) و(الحِجْر) و(الحِلْم)، فيبدو أنـها أوصاف للفؤاد (العقل)، كلٌّ باعتبارٍ خاصٍ:

فالنُّهْية وجمعها (نُهـى) اسم للفؤاد باعتبار نَهْيِهِ الإنسان عمّا هو سيِّءُ وقبيح، واللُبُّ وجمعه (ألباب)، باعتبار أن العقل هو لُبُّ الإنسان الذي يميِّزه عن الحيوان، والإنسان من دون العقل كَقِشْرٍ بلا لُبٍّ! والحِجْر باعتبار منعه الإنسان عمّا لا يليق، والحِلْم باعتبار أن العقل يجعل الإنسان حَليماً، وهذه بعض الآيات التي ورد فيها هذه الألفاظ الأربعـة:

١ ـ ﴿. . . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤].

٢ ـ ﴿. . . إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ٩].

٣ ـ ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ [الفجر].

٤ ـ ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الطور].

ومما تَجْدُرُ مُلاحَظَتُهُ أن كتابَ الله الحكيم لم يستعمل لفظ (العقل) كاسم مفرد أو جمع، وإنّما استعمله في حالة الفعل ماضياً ومضارعاً، كما قال تعـالى:

١ ـ ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة].

٢ ـ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت].

٣ ـ ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١].

وكلمة (عَقَلَ) في أصل اللغة يعني (رَبَطَ) يقال (عَقَل الدابة)، وسُمِّي (العِقالُ) عِقالاً لأنه يربط به البعير حتى لا ينطلق هنا وهناك[١]، وسُمِّي الفؤاد عقلاً، لأنه يعقل الإنسانَ عن كل ما يسوءُهُ، وربما حكمة مجيئه في كتاب الله بصيغة الفعل دون الإسم، هي أنَّ العقل يكمن جوهره في حركته التي تُسَمَّى تفكّراً أو تدبّراً أو تعقلاً، ولهذا ذكره الله تعالى في حالته التي يتحقق فيها وجوده، لِيَدُلّنا على أن من لم يحرِّك عقله ولم يعقل به، فكأنَّما هو فاقد العقل![٢].

وممّا مرَّ ذكره تبيَّن لنا أن:

الفؤاد وكل ما تحت إمرته من جنود، كالسّمع والبصر والخيال واللَّمْسِ والذوق والشمِّ، إنما هي وسائل بيد القَلْبِ، يستعملها حسب رغبته وهواه، في الخير والشرِّ.

هذا ولم أُقَرِّرْ كون الفؤاد اسماً للقوة الإدراكية للروح، إلّا بعد تَتَبّع دقيقٍ لكل استعمالات (الفؤاد) في كتاب الله الكريم، ولولا خوف الإطالةَ لَسَرَدْتُ كل تلك الآيات المباركات، ولكن أشير إلى آية واحدة فيها فقط، إذْ هي واضحة الدلالة على أن المقصود بالفؤاد هو العقل ومحلّ الفكر، وهي الآية (١٠) من (القصص): ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾.

والآية تتحدث عن شِدَّةِ غَمِّ وحُزْنِ أُمِّ موسى ـ ﵉ ـ من جرّاء جعلها إياه في التابوت ورميها التابوت في الماء (نهر النيل)، فيصف سبحانه أُمَّ

---

(١) المصباح المنير، ص ٢١٩: (عَقلْتُ البعيرَ عَقلاً، والعقال: ما يُعقَلُ به، جمعه: عُقُل).

(٢) [العقل الذي هو مصدرٌ على الحجا واللُّبِّ، ولهذا قال بعض الناس: العقل غريزة يتهيأ بها الإنسانُ إلى فهم الخطاب]، المصدر نفسه، ص ٢١٩.

موسى بأنها أصْبَحَ عَقْلُها فارغاً من أي فكر، سوى التفكير في موسى ومصيره، ثم يذكر تعالى بأنه قوَّى قَلْبَها بإنزال السكينة عليها.

وهذا التعبير ـ أي وصف العقل بأنه فارغ من الفكر ـ تعبير شائع في كل اللّغات، عندما يراد التأكيد على شدة الخوف أو الحزن أو الغمِّ، والآية واضحة الدلالة على أن الفؤادَ مَحَلُّ الفكر، كما أن القلب محلُّ التصميم والنية، لأن الله تعالى يُرْجِعُ سَبَبَ عدم بَوْح أُمِّ موسى بِغَمِّـه الذي أَفْقَدها الفِكْرَ والشعورَ، إلى رَبْطِهِ سبحانه على قلبها(١).

وخلاصة القول ونتيجته بالنّسبة للتعريف بباطن الإنسان، هي:

أن الإنسان له ظاهر وباطن، فظاهره جسمه الترابيُّ، وباطنه روحه الأمريُّ، والنفس اسم ثانٍ للروح بعد تلبّسها بالبدن، ولهذا يتوجه المَدْحُ والذَّمُّ إلى النفس دون الروح، بحسب ما تزاول بجسمها وأعضائه من أعمال.

والقلب اسم للجانب الإراديِّ للروح أو النفس، ومحلُّه الصدر، والفؤاد اسمٌ للجانب الإدراكيِّ منها، ومركزه الدِّماغ الذي هو في الرأس، وقد أطلق كتابُ الله كلاً من أسماء النُّهْية واللُّب والحِجْر والحِلْم، على الفؤاد باعتبار أوصافه، ولكن لم يستعمل له لفظ العقل، إلّا في حالته الفعلية فقط، ثم إن الفؤادَ والحواس التي تأتمر بأمره من سمع وبصرٍ ولمس وذوقٍ وشم، كُلُّها وسائل بيد القلب يستعملها ويوجِّهها كيفَ يشاء، ولهذا فهو ـ أي القلب ـ يُمْدَحُ ويُذَمُّ مثله في ذلك مثل النفس، بحسب ما يختار، وبحسب الوجهة التي يوجِّه إليها الفؤادُ جُنُودَهُ.

---

(١) ولكن يفهم من بعض السياقات القليلة أن كلمة (الفؤاد) قد استعملت بمعنى القلب، مثل قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ...﴾ [هود: ١٢٠].
كما أن كلمة (القلب) استعملت في بعض السياقات بمعنى الفؤاد والعقل، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف]، إذْ من الواضح أن الفهم والفقه عمل الفؤاد، ولعل الحكمة في هذا، هي قربُ عَمَل العقل والقلب بعضهما من بعض، وعلى أي حال فتلك السياقات نادرة واستثنائية.

٥ ـ (وكذلك يَنْعَكِسُ على ظاهره، فَيُزَيِّنُهُ بالإقرار والسَّمع والطاعة والإتبّاع):

أي أن الإيمانَ المستقرَّ في القلب، كما ينعكس ضياؤه على الباطن، كذلك ينعكس على الظاهر، وكما ينوِّر الروحَ والقلبَ والفؤادَ، كذلك يزيِّن الجسَدَ والجوارحَ، بالأعمال الصالحة والتصرّفات الشرعية.

أجل إنَّ الإيمانَ الحَقَّ كما يُنوِّرُ الباطِنَ بعد استقراره في القلب مباشرةً كذلك يُزَيِّن الظاهِرَ، إذْ ما الجِسْمُ الظاهر إلّا ظِلٌّ وصدىً للرّوح الباطن، فما حدث في القلب، انعكس على الجسم رأساً لا محالة، وهذا شيءٌ مُشاهَدٌ محسوسٌ، حتى في الأمور العادية كالحزن والفرح، والغضب والرضى، والخوف والأمن، إذْ يرى الإنسانُ بوضوح آثارَ كلٍّ من تلك الحالات النفسية التي أشرْنا إليها، على صفحات وجوه أصحابها.

ثم إنَّ تَزَيُّنَ الظّاهر يتمثَّل في عِدّة أشياء:

__أولاً__: في الإقرار بالإيمان، وبكل ما يستلْزِمُهُ الإيمان.

__ثانياً__: في السّمع، أي السَّعي لفهم الدين والفِقْهِ فيه، تحقيقاً لما وصف الله تعالى به رسولَه النبيَّ الأُمِّيَّ وأَتْباعَه المؤمنين، إذ قال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ...﴾ [البقرة: ٢٨٥].

__ثالثاً__: في الطّاعة، أي تطبيق الدين وتنفيذ أوامره ونواهيه، وتجسيده في الحياة الفردية والأُسَرية والإجتماعية، وقد ركّز كتاب الله على الطاعة أيَّما تركيز، حيث تكرّر الأمر بالطاعة في آيات كثيرة جداً، وقلّما ذكر الله الطاعَةَ وأَمَرَ المؤمنين بها، إلّا وقَرَنَ بين طاعته وطاعة رسوله ﷺ، مثل:

* ﴿...وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].
* ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم...﴾ [النساء: ٦٩].
* ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ...﴾ [النور: ٥٤].

* ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ۝٢٠﴾ [الأنفال].

* ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ...﴾ [النساء: ٥٩].

وقد وصف الله تعالى خاتم الأنبياء وأتباعه المؤمنين، بأنهم يعلنون الطاعة لله تبارك وتعالى بإطلاق: ﴿...وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ...﴾ [البقرة: ٢٨٥].

رابعاً: في الإتِّباع، أي إتباع شريعة الله والإلتزام بها، حسبما أمر بها الله تبارك وتعالى، وطَبَّقَهَا رسولُ الله ﷺ وأصحابُهُ، وكلُّ من اهتدى بهديهم وسار على دَرْبِهم، قال الله تبارك وتعالى آمراً رسولَه باتِّباع شريعته التي أنزلها عليه: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨﴾ [الجاثية]، وقال آمراً أهل الإيمان باتِّباع ما أنزله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف].

والفرق بين الطاعَةِ والإتِّباع، ليس إلّا في الجهة التي يُوَجَّهُ إليها كلٌّ منهما، فالطاعة تتوجَّه إلى مُطاع، ولهذا لم يذكر الله الطاعة، وما أَمَر المسلمين بها، إلّا وأضافها: إمّا إلى الله ورسوله، أو إلى الله، وقد وردت مرة واحدة فقط مضافة إلى (أولي الأمر) بعد الله تعالى ورسوله، ولكن عَطْفاً على الطاعة لهما وبدون تكرار كلمة الطاعة، وتفصيل هذا الموضوع تكفَّل به الفَصْلُ الثالثُ من الباب الثالث.

وهنا أُريد أن أُلقي الضّوء على مسألة مهمةٍ طالما أُثيرَ حولَها النِّقاشُ بين العلماء:

كيفية العلاقة بين الإيمان والأعمال الظاهرة:

هل الأعمال (أي أعمال البَدَن الظاهرة) تقع ضمن دائرة الإِيمان أم خارجَها؟ ثم هل هي مكوِّنة للإِيمان، بحيث لا يتم ولا يصحُّ الإِيمانُ بدونها، أم هي مُكَمِّلةٌ له فقط؟ وقد صار المسلمون عموماً أمام هذا المسألة ثلاثة أقسام:

١ ـ طرفٌ مفرِّطٌ.

٢ ـ طرفٌ مُفْرِطٌ

٣ ـ وآخرون متوَسِّطون بينهما.

وسنشير إلى كل من هذه الأطراف الثلاثة وآرائهم باختصار، ثم نُدْلي بما نراه حقاً في الموضوع:

١ ـ المُفَرِّطون:

وهم الذين أنكروا أن تكون للأعمال الظاهرة أية علاقة بالإِيمان، وقالوا إن الإيمان حقيقة واحدة بسيطة غَيْرُ مركَّبة، ويتساوى فيها أهلُ الإِيمان كلُّهم، لذا فلا يَضُرُّ مع الإيمان ذَنْبٌ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، هؤلاء عُرِفوا في التاريخ الإسلامي بعنواني:

أ ـ (الجهميّة) لأن (جهم بن صفوان) هو أبرز شخصيات هذه الفكرة.

ب ـ و(المرجئة) وهم أنواع، ولكن يجمعهم كُلَّهم وصْفُ: (تأخيرِ

العمل عن الإيـمان) أي: جعل الإيمان واعتباره شيئاً مستقلاً عن العمل، وهذا هو سبب تسميتهم بالمرجئة، من (أرجـأ الأمر يُرْجِئُـهُ) أي يُؤخِّره[1].

وهناك فروق بين الجهمية والمرجئة، ولكنهما مجتمعان على فصل العمل عن الإيـمان.

٢ ـ المُفرِطـون:

وهـم عكس الإتجاه السابق، حيث يعتبـرون كلَّ عملٍ (سواءٌ كان فِعْلَ مأمورٍ أو تَرْكَ محظورٍ) مكوِّناً للإيـمان وشرطاً لِصِحَّتِهِ، وبناءً عليـه: فكل مسلمٍ يرتكب كبيـرة ـ كـأن يترك واجباً أو يفعل حراماً ـ، يخرج من دائرة الإيـمان، إذن: ـ على رأيهم ـ الذنوب تَضُرُّ بالإيـمان أَيَّما ضَرَر، بل كل ذنبٍ يَنْقُضُ الإيـمانَ، ويُخْرِجُ صاحِبَه من دائرة الإيـمان والإسلام!

وهؤلاء أيضاً عُرِفوا تاريخيـاً بعنوانـي: أ ـ الخوارج. ب ـ المعتزلة. والفرق بينهما من ناحية نظرهم إلى الإيـمان: أَنَّ الخوارِجَ كانوا يعتبـرون كلّ مُرتكبِ كبيـرَةٍ ـ من المسلمين ـ خارجاً من دائرة الإيـمان وكافراً، ولكن المعتـزلة يقولون: إنَّ مرتكِبَ الكبيـرة لم يَعُدْ مؤمناً، وَلَمْ يُصْبِحْ كافراً، بل هو في منـزلةٍ بين منـزلتي الإيـمان والكفر، وقاعدة (المنـزلة بين المنـزلتين) أَحَدُ الأركان الخمسة للمعتزلـة، وهي:

(التوحيد، العدل، المنـزلة بين المنـزلتين، الوعد والوعيد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

٣ ـ المتوسِّـطون بين الطرفيـن:

وهـم يمثِّلون السَّواد الأَعظم والأكثرية من علـماءِ الأُمّة، تاريخياً، وهؤلاء توسَّطوا بين الإتجاهين، ورفضوا كلا الرأييـن السابِقَيْنِ، وقرَّروا أن للأعمال الصالحة صِلةً وثيقةً بالإيـمان، وهذا القَدَرُ ـ أي كون الأعمال

---
(١) المصباح المنير، ص١٢.

مرتبطة بالإيـمان ـ هو القَدَرُ المشترَكُ المتَّفَـقُ عليه بينهم، وأما ما اختلفوا فيه بـهذا الشأن فسنشيـر إليـه بعد قليـل.

وبناءً على هذا الرأي، والذي هو الرأي الوسط والصّواب عموماً، فإن للأعمال فِعْلاً وترْكاً، تأثيـراً في الإيمان، إيـجاباً وسَـلْباً، وقد عَبَّر العلماءُ والأئمة عن هذا الإتـجاه بقولهم: (الإيـمان يَزِيدُ ويَنْقُصُ، يَزِيدُ بالطاعة وينقص بالمعصـية).

وأما الذي اختَلفَ بشأنه العلماءُ في هذا المجال، فهو:

هل الأعمال مكمِّلة للإيـمان فقط، أم مكوِّنـة له أيضاً؟ أي: هل وجود أعمال الجوارح بفعل المأمورات وترك المحظورات، شرطٌ لكمال الإيـمان، ويصحُّ بدونها، أم هي شرطٌ لوجوده، ولا يَصِحُّ ولا يَتِمُّ بدونـها؟!

وقد مالَ بعضُ العلماء إلى الرأي الأول، ومالَ البعضُ الآخر إلى الثانـي، واستدلَّ كلا الفريقين بأدلّة لإثبات رأيـه، ولكن لا مجال ولا أرى مُوجِباً للخوض في تفاصيل ذلك.

وقد آنَ الآن أَوانُ الإدلاء بِدَلْـوي في الموضوع:

فأقول مستعيناً بالله تعالى، وفي ضوء ما تقدم ذكره مِنْ كتاب الله الكريم:

١ ـ بـما أنَّ الآيات القرآنية صرَّحت بأنَّ محلَّ الإيـمان هو القلب، فالإيـمان يستقِرُّ في القلب فقط، ولَيْسَ له مكانٌ آخر في كيان الإنسان.

٢ ـ وبـما أن الآيات القرآنية بينَّتْ أن الإيـمان بالإضافة إلى جذورها العقلية والقلبية، له آثارٌ وثـِمارٌ تَتَمَثَّلُ في تعبيرات اللِّسان الإيمانية، من إقرار وذكر وغيرهما، وأعمال الجوارح، وقد سـمَّى الله بَعْضَ هذه الآثار والثمارِ إيماناً.

٣ ـ ثم بـما أن الله تعالى يُخاطِبُ المسلمين بلفظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عندما يبيِّنُ ويُحدِّدُ لهم شرائِعَ الإسلام وأعمالَه، فَهذا يدلُّ على أن لهم إيماناً قبل قيامهم بما يُكَلَّفون بهِ من أعمال.

أجَلْ بناءً على هذه الحقائق الثلاث، نقول:

إنّ أوَّلَ ما ينشأ من الإيمان، هو تلك الحقيقة النورانية التي تدخُلُ القلب بإرادة الإنسان وكَسْبه، وفضل الله وتوفيقه وتيسيره، ولكن ما إنْ دخلت القلب واستقرّت فيه، إلّا وشَرَعَتْ بتنوير الباطن بحقائق الإيمان (أعمال القلب)، ثم بتعمير الظاهر وتزيينه بالأعمال الصالحة والطاعة.

وما دام الإيمانُ موجوداً في القلب، فلا يمكن أن تَتَخلَّفَ عنه آثارُه وثِمارُه أبداً، فهي له كالظلِّ تُلازِمُه حيثما كان، أي كما أنه لا يمكن انفصال الظِّلِّ عن الشيء، أو كما لا يمكن الإنفكاك بين الشمس والقمر، والضياء والنور الصادرين منهما، كذلك بالنسبة لارتباط الأعمال بالإيمان.

ولكن الأعمال الصّالحة، أو الطاعة والإتِّباع، وإن كانت عموماً تُلازِمُ الإيمانَ، لكن ليست كُلّها في درجةٍ واحدة، وفي مستوىً واحدٍ، حتى تكون لها حكمٌ واحدٌ!

بل منها ما لا يمكن أن تتخلَّف عنه أبداً، وفي أي حال من الأحوال، وهي الأعمال والآثار الّتي سمَّيْناها بِمُكَوِّنات الإيمان، والتي سمّاها الله تعالى إيماناً، أو جعلها شرطاً ضرورياً لوجود الإيمان، بِصِيَغٍ مختلفةٍ دالَّةٍ على ذلك، كما بيّناها سابقاً.

وهذا النوع من الأعمال (الطاعة) يعتبر وجوده شرْطاً لوجود الإيمان أي لا يكون له وجودٌ بدونها.

ومن الأعمال (الطّاعة) ما هي شرطٌ لكمال الإيمان فَحَسْبُ، وليس شَرْطاً لوجوده، وهي التي لَمْ يُسَمِّها الله تعالى إيماناً، ولم يعتبرها شرطاً لوجوده.

هذا وقد قَسَّم بعضُ العلماء الأعمالَ الناشِئَة والنابعة من الإيمان، إلى ثلاثة أقسام:

أ ـ قسمٌ هو شرطٌ لوجود الإيمان ـ أي أصل الإيمان أو مطلق الإيمان ـ وأطلقوا على هذا القسم اسم (أصل العمل).

ب ـ وقسم هو شرطٌ لكمال الإِيمان الواجب.

ج ـ وقسمٌ هو شرطٌ لكمال الإِيمان المستحبّ، أو الإِيمان المطلق.

١ ـ وأصل الإيـمان، أو مُطْلَقُ الإيـمان، هو الحدُّ الأقلُّ والأَدْنـى من الإيـمان، الذي هو شرط لاعتبار الإنسان مؤمناً، ومن ثم يدخل به الجَنَّـةَ في الآخرة، وهذا النوعُ من الإيـمان لا يَحْفَظُ صاحِبَه من ارتكاب الكبائر.

٢ ـ والإيـمان الواجب، هو الإيـمان الذي يَحْفَظُ صاحِبَهُ من ارتكاب الكبائر ـ والكبيـرة هي كل ذنبٍ حُدِّدَتْ له عقوبةً دنيوية، أو عليه وعيد أخروي في الكتاب أو السنة، وهو إما فعل محظور أو ترك مأمور ـ[1]، أو يَجْعَلُ صاحِبَه الخاطِيءَ يتوب توبةً نصوحاً ماحية للذنوب كلِّها، ومن ثم يدخل به الجنة، في الآخرة قبل أن يعذب بالنار.

٣ ـ والإيـمانُ المُسْتَحَبُّ أو المَطْلَقُ، هو الذي يَحْفَظُ صاحِبَهُ حتى من ارتكاب الصَّغائرِ وترك المندوبات المستحبَّة، وهذا هو أعلى وأفضل أنواع الإيـمان، ولكلٍّ من المؤمنين في الآخرة، من الثواب والرِّفعـة على قَدَرِ إيمانهم وطاعتهم وإحسانـهم.

٦ ـ (ويجعله متحلّياً بالفضائل النفسية والخُلُقية).

ومن الواضح أن مفهوم الأعمال الصالحة والطاعة والإِتباع، يشمل أيضاً مسألة التحلِّي بالفضائل النفسية والخُلُقية، ولكن أَفْرَدْتُها بالذكر تأكيداً على أهميتها.

ونقصد بالفضائل النفسية، تلك الشيم والخصال الحميدة الرفيعة الباطنة التي يُثْمِرُها الإِيمانُ في النفس المؤمنة المتقية المتـزكية، سواءً منها المرتبطة بـما بين الإنسان وربّه، أو بـما بين الإنسان وغيره من الناس، وبـما أنّـنا قد

(١) وعرَّفَها الجرجاني بقوله: (الكبيرة: هي ما كان حراماً مَحضاً شُرِعَ عليها عقوبة محضةٌ بِنَصٍّ قاطِعٍ في الدنيا والآخرة) التعريفات ص، ١٨٠.

فصَّلْنا القول في هذا الموضوع في الفصل الأول من الباب الثالث، فَنُحيلُ عليه ونَدَعُ الحديث عنه هنا.

وكذلك نقصد بالفضائل الخُلُقية تلك الأخلاق الحسنة والآداب السامية الظاهرة التي يُثْمِرُها الإيمانُ في الإنسان المؤمن، في مجال تعامله مع الناس، وقد تحدَّثنا عن هذا الموضوع أيضاً في الفصل الأول، وكذلك الفصل الثاني من الباب الثالث.

وقد جعل رسولُ الله ﷺ خُلُقَ المؤمِن معياراً لإيمانه، حيث قال: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً، وَخِيَارُهُمْ خِيَارُهُمْ لِنِسَائِهِم**» (أَخْرَجَهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (١١٦٢) وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ، رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ برقم: (٤١٧٦) قال الشيخ الألباني: حَسَنٌ صَحِيح).

وكذلك جعله سبب الخيرية حيث قال: «**إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقاً**» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (٣٥٥٩)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٣٢١)).

٧ ـ (كالشمس الّتي تضيءُ بأشعَّتها ما حولَها وما بَعُدَ عنها):

وهذا مثال ضَرَبْنَاهُ لتوضيح كيفية ارتباط الأعمال والطاعة بالإيمان، إذْ شبَّهْنا الإيمانَ بالشمس، وآثارَها وثمارَها المتمثِّلة في السمع والطاعة والإتِّباع (الأعمال الصّالحة) بِأَشعَّتها، إذْ كما أن الشمس لا يمكن أن توجد من دون أشعَّتها، وأشعَّةُ الشمس جزءٌ منها ولا تنفصلُ عنها بحالٍ، كذلك لا وجود للإيمان إلّا مع آثاره (المشروطة لوجوده خصوصاً، والمشروطة لكماله عموماً) وثماره الطيِّبة، فهي جزءٌ منه ولا تَنْفَكُّ عنه أبداً.

وفي ختام بحثنا حول تعريف الإيمان، أودُّ الإشارة إلى مسألة مهمّة، وهي:

إنّ آثارَ الإيمان وثمارَه العامة والخاصّة المشروطة منها لوجود الإيمان، يختلفُ حكم اشتراطها من شخصٍ إلى آخر، بل ومن شخصٍ واحد في حالة إلى أخرى، وهذا هو المقصود بمصطلح (الإيمان المجمل

والإيـمان المفصّل)، وسبب ذلك هو أنَّ التكليفَ الشرعيَّ على قَدَرِ الطاقة والوُسْعِ، كـما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ...﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ...﴾ [التغابن: ١٦]، وبناءً عليه: فمن لم يتمكَّنْ من معرفة بعضِ الأحكام الشرعية التي تتضمَّن بَعْضَ الواجبات، أو بعض المحظورات، رغم بذل الجهد الميسور له، ومن غير أن يكون له تقصير مُتَعَمَّد، ثم ترك تلك الواجبات، أو ارتكب تلك المحظورات التي يجهل حكمها، فهو لا يعتبر آثِماً، ومن ثمَّ لا حسابَ عليه ولا عقابَ بسبب ذلك.

وهذا هو السِرُّ في أن الله تعالى اعتبر المسلمين: (مؤمنين) في أول عهدهم بالإسلام في مكة، قبل أن يُنَزِّلَ عليهم الأحكامَ الشرعية المحدِّدة للواجبات والمحرَّمات، وكذلك الحالُ الآن، إذا حال حائلٌ واقعي من جهلٍ أو إكراهٍ أو اضطرار، دون تمكُّن أحدٍ من أهل الإيمان، من مزاولة واجبٍ أو اجتناب حرام، فإنَّ هذا لا يضرّ إيـمانَهُ الذي اطمأنَّ به قَلْبُهُ، وتنوَّر به باطِنُهُ، وتَجمَّلَ به ظاهِرُهُ، بالقَدَر الذي هو في وَسْعِهِ وإمكانه.

ونَخْلُصُ من كل ما مرَّ ذكره، بصدد تعريف الإيمان، إلى القول:

إنَّ للإيـمان وجوداً خاصاً مستقرُّه القَلْبُ، ووجوداً عامّاً يظهر على كل الجوارح الظاهرة، أمّا الإيـمان الخاصُّ المستقِرُّ في القلب، فلا بدَّ منه لاعتبار الإنسان مؤمناً في كل حال، حتى في حالة الإكراه، بل وفي حالة الموت (أي الإحتضار) والقتل أيضاً، لأَنَّ امتلاكَ ذلك النوع من الإيـمان في كلِّ الأحوال ميسورٌ للإنسان، ولكِنَّ الإيمانَ العام أو الوجود العام للإيـمان يُتَسامَحُ فيه في الأحوال الإستثنائية، وذلك لأنه ليس ميسوراً مثل النوع الخاص في كل حالة، ولا يكلِّفُ الله الناسَ إلّا بما هو ميسورٌ وممكنٌ لهم كما قال جلّ شأنه: ﴿... يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وبهذا نختم الكلام عن موضوع تعريف الإيـمان، وننتقل إلى الفصل السادس، لِنُلْقيَ الضوء على (الكفر) أيضاً ونعرِّفه باختصار.

الفصل السـادس

تَـعْـريـف الكُـفـر

ونعرِّفُ الكُفْرَ في ضوءِ آيات كتاب الله المبين، وفي ضوءِ ما مرَّ معنا من أبحاث، بالتعريف الآتـي:

<u>الكفر</u>:

(هو الظلمة التي يَكْتَسِبُها الإنسانُ بنفسه، وبتزيين الشيطان، ومُستقرُّه القَلْبُ، فَيُظْلِمُ باطِنَ الإنسان بالضَّلال والتكذيب، ويُقبِّح ظاهِرَهُ بالطغيان والتوليِّ والعصيان، والتَلَبُّس بالرذائل النفسية والخُلُـقية، كاللّيل الحالِكِ الذي يُخَيِّمُ على كلِّ شيءٍ بظَلامِهِ).

١ ـ (الكفر هو الظلمة التي يكتسبها الإنسانُ بنفسِهِ، وبتزيين الشَّيطان).

وإنّما سـمَّينا الكفر ظلمةً على عكس الإيمان الّذي عبّر عنه كتاب الله بالنـور، اقتباساً من كتاب الله الذي استعمل هذا التعبيـر للكفر، في أكثر من آيـة، منهـا:

* ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ...﴾ [الأنعام: ١٢٢].

* ﴿...وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ...﴾ [البقـرة: ٢٥٧].

* ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم].

وأما كون الإنسان الكافر، هو الذي يكتسب ظلمة الكفر بنفسه، ويُظْلِمُ بها وجوده، فقد بينّاه من قبل، وأكتفي هنا بالإشارة إلى هذه الآيات بهذا الصَّدد:

١) ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة].

ويدلُّ بناءُ كلٍّ من لفظي (كَسَبَتْ) و(اكْتَسَبَتْ) وَجرَسَهُما على أنّ المقصود بالكسب هنا، هو كسب الإيمان والطاعة، والمقصود بالإكتساب هو اقتراف الكفر والمعصية ـ بالإضافة إلى دلالة (ل) في: (لَها) و(على) في (عليها)، إذ (ل) للنفع، و(على) للضّرر ـ ولا شك أن الإيمانَ والطاعَةَ بسبب موافقتهما للفطرة أسْهلُ وأيْسَرُ، من الكفر والمعصية المتصادمين مع الفطرة].

٢) ﴿...فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ...﴾ [الكهف: ٢٩].

٣) ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت].

وأما تزيينُ الشيطانِ الكفرَ للكافر، فهذا هو وظيفة الشيطان الرجيم، كما بيَّن ذلك كتابُ الله في أكثر من آية، منها:

* ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل].

* ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر].

* ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر].

ولكن ليس للشيطان أيُّ إكراهٍ أو ضغطٍ في إضلال الناس وتكفيرهم، بل سلطانُهُ الوحيد، يَتَمَثَّل في الوسوسة والدعوة إلى الشرِّ، كما قال تعالى

حكاية عن إبليس: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم].

٢ ـ (ومستقرُّهُ القلب):

هذا ما بيّناه في السابق فلا داعي للتكرار، ولكن نقول باختصار:

إنّ القلب مركز الإرادة للنفس والروح ومركز القيادة والتوجيه، لذا فإذا أسكن في صاحِبِه نورَ الإيمان، وجَّهه نحو الله تعالى ومرضاته، والذي يكون سبباً لخيره وصلاحه في الدنيا والآخرة، ولكن إذا سَلَّطَ عليه ظُلْمةَ الكفر، فَوِجْهَةُ الكفر حينئذٍ معلومة، كما قال الشاعر:

ومَن جَعَلَ الغُرابَ له دليلاً يَمُرُّ به على جيف الكلاب!

وفي الحالتين، فإرادة الإنسان الحرّة هي الموجِّهة، والتي تتَّخذ من القلب مقراً لها.

٣ ـ (ولكنْ يُظْلِمُ باطِنَ الإنسان بالضّلال والتكذيب):

نعم كما أن نور الإيمان ينعكس على باطنِ الإنسان المؤمن، كذلك تنعكس ظلمة الكفر على باطن الإنسان الكافر، وتَصْبَغُهُ بصبغتها السّوداء، والضلال عكس الهداية التي تجمع في طيّاته اليقين والطمأنينة، كما أن التكذيب عكس التصديق، والضّلال هو أخصّ خصائص الكفر المعنوية، وهو الثمرة الخبيثة الكبرى للكفر، إذِ الكافر ضالّ عن ربِّه وعن نفسِهِ، ومن ضلَّ عن ربِّه ونَسِيَهُ، أنساهُ الله نَفْسَه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر]، والمقصود بالفسق هنا، هو الخروج المطلق عن الفطرة، وعن العقل، وعن الدِّين، إذ الكفر يجعل الإنسانَ ينقلب على فطرته التي فطره الله عليها، وعلى العقل السليم وأحكامِهِ، وعلى دين الله الحق الموافق للفطرة والعقل، وبالنتيجة

يُصْبِحُ الكافِرُ من جرّاء كفره، مَمْسوخ الشخصية، منكوسَ العقل، مطموس البصيرة، فلا يدري:

من أين جاءَ؟!

ولِمَ جيءَ به؟!

ومَنْ جاءَ به؟!

وإلى أين يسير؟!

فيقع في ظلمات بعضها فوق بعض!

٤ ـ (ويُقَبِّحُ ظاهِرَهُ بالطغيان والتولِّي والعصيان، والتَلَبُّس بالرذائل النفسية والخُلُقية):

أجَلْ إن الكفر المستولي على القلب، كما يُظْلِمُ الباطنَ بِظلامِهِ، كذلك يقبِّح الظاهِرَ بِقُبْحِهِ، والذي يتجسَّد في الطغيان والتولي والعصيان.

والطغيان هو تجاوز الحدود مع الله الخالق، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق]، واستشعار الإنسان الإستغناء عن خالقه وربِّه ورازقِهِ، ينبع من الضلال المُترَشِّح من الكفر.

والتولِّي هو الإعراض عن الطاعة لله تعالى، ومَنْ طغى على ربِّهِ وغرَّ وتكبَّر فهو يُديرُ الظَّهْرَ لطاعته، كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ [القيامة]، والعصيان هو ارتكاب المعاصي، سواء بترك الواجبات أو إتيان المحرَّمات، ولهذا ذكَّر الله تعالى أهلَ الإيمان بنعمة الإيمان الكبرى وآثاره العظيمة في حياتهم، فقال: ﴿...وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحجرات].

والمقصود بالتلبُّس بالرذائل النفسية والخُلُقية، هو حصول الخصال

الذميمة المخفية، كالشرك والكبر والحسد وغيرها، سواء منها ما يَتَعلَّق بما بين الإنسان وربِّه، أو بما بين الإنسان وغيره من الناس، وكذلك حصول الأخلاق السيئة الظّاهرة، كالبُخل والإختيال والكذب وغيرها في الإنسان الكافر، وبما أنَّنا سَنُفَصِّل القوْل في هذا الموضوع في الباب الرابع ـ أي الكتاب الثاني عشر من هذه الموسوعة ـ نرجيءُ الخوض في تفاصيله إلى هناك بإذن الله تعالى.

٥ ـ (كاللّيل الحالِكِ الذي يُخَيِّمُ على كلِّ شيءٍ بظَلامِهِ):

وهذا مثال ضربته لبيان كيفية تأثير الكفر في الإنسان الكافر، إذ الكفر كاللّيل البهيم الّذي إذا أقبل لا يَدَعُ شيئاً إلّا وَيلُفُّهُ بظلامه الحالك، فتبدو الدنيا بما فيها وكأنَّها كلُّها سوادٌ، في سوادٍ، مع أن الواقع ليس كذلك ولكنّه الظلام الذي يَصْبَغُ الأشياء بصبغتها، ويُفقِدُها ألوانَها الأصلية، ويَجُبُّ صُوَرَها، ويَطمِسُ آثارَها، كذلك الكفر يَقْلِبُ فِطرةَ الإنسان وشخصيته رأساً على عقب، ويجعله مخلوقاً منكوساً مَمْسوخاً، كما قال تعالى عن قوم (إبراهيم) عَلَيْهِ السَّلَامُ الضالّين العاكفين على عبادة الأصنام: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ...﴾ [الأنبياء: ٦٥].

وأيةُ انتكاسة وأيُّ مَسْخ مثل انتكاسة الإنسان الكافر ومَسْخِهِ، الذي يجعل نفسه بعد أن خلقه الله في أحسن تقويم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين]، أَحَطَّ رتبةً من الحيوان البَهيْم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف]، وذلك لأن الحيوان لا يمكنه، إلّا أن يكون حيواناً، أما الإنسانُ فبإمكانه أن يظلَّ إنساناً، بأداءِ وظيفته الفطرية التي حدَّدها له ربُّهُ، وهي العبودية لله تبارك وتعالى، ولا يَنْقَلِبَ حيواناً!

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

ameer.maktab@yahoo.com

/AliBapir /AliBapir /MediaAmeerOffice

www.alibapir.net

الفصل السابع

ثمارُ الإِيمان الدُّنيوية

لا شك أَنَّ آثارَ الإِيـمان وثـمارَه الدنيوية في حياة أهل الإِيـمان، كثيـرة جداً، وذلك لأنّ الإِيـمان هو مصدر الخيرات وينبوع البـركات كلِّها، وكيف لا! والإيـمان هو الإرتباط بالله الرحمٰن الرحيم الجواد الكريم جلّ وعلا، وكيف لا يكون الـمرتبط بالله مَحَلاّ لكلّ البـركات وأهلاً لكل الخيـرات!

لذا فمن الصَّعب جداً ـ إنْ لم يكن محالاَ أصلاً ـ عَدُّ بركات الإِيـمان وثمارِهِ، في حياة أهل الإِيـمان، على الصَّعيد الفردي والجماعي، ولكن سنحاولُ جَهْدَ الإمكان، دَرْجَ ما يـمكننا دَرْجُهُ من تلك الآثار والثمار، ولا نفرِّق بين ما هو شرط وضروريٌّ ومكوِّنٌ للإيـمان، وما ليْس كذلك، إذ الجامع المُشْتَرَكُ بينها هو: كونـُها من ثـمار الإيـمان وآثارِهِ، أيـاً كانت درجته ورتبتـه، وأياً كان محلّها من إعراب الإيـمان.

وسنكتفي بما ذكرها الله الحكيم جلّ وعلا، كصفات ومواقف وأعمال لأهل الإِيمان، تحت عنوان (الإِيمان) فحسب، ولا نَتَطَّرقُ إلى ذكر الصفات والأعمال والمواقف الأخرى لهـم، والتي ذكرها الله تعالى تحت عناوين أخرى، مثل:

(عباد الرحمٰن) أو (المتقين) أو (المسلمين) أو (الأبرار) وذلك كي لا يتشَّعب الحديث عنّا كثيـراً، أولاً، وثانياً لأننا سنجمع تلك الأوصاف كلّها تحت أي عنوان كان، عند حديثنا عن (المؤمنين) في الفصل الثاني من الباب الرابع ـ أي الكتاب، الثاني عشر من هذه الموسوعة ـ بإِذن الله وتوفيقه،

وذلك لأن (العبادة) و(التقوى) و(الإسلام) و(الإحسان) و(البرّ) كلّها من آثار الإِيمان ونتائجه.

ومن الواضح أن الإِيمان ـ كما بيّناه في السابق ـ درجاتٌ وأنواعٌ، وكل نوع أو درجةٍ منه، تتمخَّض منه من الآثار والثمار، على قَدَرِهِ وحَسْبَ مستواه، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٣٢﴾ [الأنعام].

والآن إلى هذا الجدول الذي نُدْرِجُ فيه آثارَ الإِيمان، مع ذكر الآيات أو الجمل القرآنية التي تدلّ عليها:

جَدْوَلٌ بآثار الإيمان وثمارِهِ الدنيوية:

التسلسل	نوعية الأثر والثمرة الإيمانية	الآيات التي أخذت منها
١ و٢	وَلاية الله تعالى، والخروج من الظلمات إلى النور، (وسنشرح مفهومهما في الكتاب الثالث).	﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ...﴾ [البقرة: ٢٥٧]
٣	الهداية، (سنشرح مفهوم الهداية في الفصل الثاني من الباب الثالث).	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم﴾ [يونس].
٤	حُبُّ الله تعالى أشَدَّ حُبٍّ.	﴿...وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ...﴾ [البقرة: ١٦٥].
٥	الخشية من الله تعالى وحده، والفرق بينها وبين الخوف، أنَّ الخشية يرافقها التعظيم[1].	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة].

(١) المعجم الوسيط: ص٢٣٧، (..وخَشيَهُ: خافَهُ بتَعْظِيم ومَهابَةٍ).

الآيات التي أخذت منها	نوعية الأثر والثمـرة الإيمانية	التسلسـل
﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح].	نزول السكينة على القلب.	٦
﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].	طمأنينة القلب بذكر الله، والفرق بينها وبين السكينة: أَنَّ السكينة تأتـي فجأة وفي حالات الشدَّة، ولا تدوم كثيراً مثل الطمأنينة، وليس لها سبب معروف[(١)].	٧
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ. . .﴾ [آل عمران: ١٠٢].	التقوى، (سنشرح مفهوم التقوى في الفصل الأول من الباب الثالث).	٨
﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس].	البُشْرى، وقد فسَّرها رسولُ الله ﷺ بأنَّها الرؤيا الصالحة يراها المرءُ أو تُرى له[(٢)]، هذا بالنسبة للدنيا، وبشرى الآخرة، هي التبشير بدخول الجنّة ونيل رِضوان الله تعالى.	٩

(١) عَرَّف الجرجاني (السكينة) بقوله: (السَكينة: ما يَجدُهُ القلب من الطمأنينة عند تَنزّل الغَيْب، وهي نورٌ في القلب يسكن الى شاهده ويطمئن: وهو مبادىءُ عين اليقين) التعريفات، ص ١٢٢.

(٢) وهذا هو نصّ الحديث عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله سبحانه: (لَهُمُ البُشْرى في الحَياةِ الدُّنيا) قال: (هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمِنُ أو تُرى لَهُ) أخرجه الطيالسيُّ: ٥٨٣، وأحمد ٢٢٧٥، وإبن ماجه: ٣٨٩٨، والحاكم: ٣٣٠٢، وغيرهم وإسناده صحيح.

التسلسل	نوعية الأثر والثمرة الإيمانية	الآيات التي أخذت منها
١٠ و١١	تكفيرُ السيئات، وإصلاحُ البال.	﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ [محمد].
١٢ و١٣	النَّصْرُ على الأعداء، وتثبيتُ الأَقدام	﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد].
١٤	عدم تَسَلُّط الشيطان عليهم.	﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل].
١٥	النجاة (من المشاكل والصعوبات).	﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس].
١٦	فتح أبواب بركات السماء والأرض.	﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَاتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ...﴾ [الأعراف: ٩٦].
١٧	التحبيب إلى الخلق من: الناس والجنِّ والملائكة.	﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم].
١٨	العِزَّة (وهي صَوْن النفس من التبذُّل والتذلُّل للخلق)[1].	﴿...وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

(١) المصباح المنير، ص ٢١١.

التسلسل	نوعية الأثر والثمرة الإيمانية	الآيات التي أخذت منها
١٩	العُلُوُّ والرِّفعة (أي بالحق وللحق).	﴿...وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].
٢٠	عدم الخوف من الأعداء (أي خوفاً يجعل المرءَ يُحْجِمُ عن الإقدام وقت الضرورة).	﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران].
٢١	صدق الوعد مع الله وعدم تبديل الموقف.	﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الأحزاب].
٢٢ و٢٣ و٢٤	السجود لله عند تذكُّر آياته، والتسبيح بحمده، وعدم التكبُّر.	﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ١٥﴾ [السجدة].
٢٥ و٢٦	البكاء، وازدياد الخُشوع سجوداً لله تعالى عند سَماعِ آيات كتاب الله الحكيم.	﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾ [الإسراء].
٢٧	إنسكابُ الدُّموع من العين، بسبب معرفة الحق الذي جاء به النبي الخاتم ﷺ.	﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [المائدة].

التسلسل	نوعية الأثر والثمرة الإيمانية	الآيات التي أخذت منها
٢٨ و٢٩	صيرورة كتاب الله هدىً ورحمةً لهم.	﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾ [النمل].
٣٠	وصيرورته شفاءً لهم.	﴿... قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۚ ...﴾ [فصلت: ٤٤].
٣١	وصيرورته ذِكْرى (أي مذكِّراً) لهم.	﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةً وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [العنكبوت].
٣٢	وكونه بُشْرى (أي مبشِّراً) لهم.	﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [البقرة].
٣٣	فهم أمثال القرآن ومعرفة أسرارها ومراميها الدقيقة.	﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ ...﴾ [البقرة: ٢٦].
٣٤	دفع السيئة بالحسنة (أي الإحسان في مقابل الإساءة).	﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ ... ٥٣ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٥٤﴾ [القصص].
٣٥	إدراك حكمة خلق السموات والأرض، وأن الله حق، وخلقهما بحق.	﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٤﴾ [العنكبوت].

التسلسل	نوعية الأثر والثمرة الإيمانية	الآيات التي أخذت منها
٣٦	مشاهدة آيات الله الناطقة بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.	﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الجاثية].
٣٧	مشاهدة آيات الله الدالّة على عَظَمَته ورحمته، في الطّير المسخّرات في جوّ السماء.	﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل].
٣٨	مشاهدة آيات ربوبية الله تعالى في ظاهرتي الليل والنهار.	﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النمل].
٣٩	مشاهدة آيات الله وعلامات ربوبيّته، في مسألة بَسطِ الرزق وتضييقه للخلق.	﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم].
٤٠	الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس.	﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ . . .﴾ [الحجرات: ١٥].
٤١ و٤٢	الأُخُوَّة الصّادقة، والموالاة الخالصة، مع أهل الإيمان فقط.	﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . . .﴾ [الحجرات: ١٠]
٤٣	عدم اتخاذ الكفار أولياء.	﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . .﴾ [المجادلة: ٢٢].
٤٤	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.	﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ . . .﴾ [آل عمران: ١١٠].

التسلسل	نوعية الأثر والثمرة الإيمانية	الآيات التي أخذت منها
٤٥ و٤٦	السمع والطاعة لله تبارك وتعالى، ولرسوله، ولولاة الأمر الشرعيين.	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ . . .﴾ [النساء: ٥٩].
٤٧	ردّ المسائل الخلافية إلى الكتاب والسنة.	﴿. . . فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ. . .﴾ [النساء: ٥٩].
٤٨ و٤٩ و٥٠	تحكيم رسول الله ﷺ (أي شريعة الله) في المنازعات، وعدم الشعور بالضِّيق أمام الحُكْمِ الشرعيِّ، والتسليم التامِّ له.	﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]
٥١	الإلتزام بأمر القيادة، وعدم الذَّهاب هنا وهناك إلّا بعد الإستئذان.	﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٖ جَامِعٖ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ. . .﴾ [النور: ٦٢].
٥٢ و٥٣ و٥٤	الإستخلاف في الأرض، والتمكين لدين الله، وإبدال الخوف بالأمن، (أي الإستقرار السياسي).	﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنٗاۚ. . .﴾ [النور: ٥٥].
٥٥ و٥٦ و٥٧ و٥٨ و٥٩	وَجَلُ القلب عند ذكر الله تعالى، وازدياد الإيمان بِسَماع آياته، والتوكّل عليه، وإقامة الصَّلاة، والإنفاق في سبيل الله.	﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال].

التسلسل	نوعية الأثر والثمرة الإيمانية	الآيات التي أخذت منها
٦٠	الشِدَّة على الكفّار (في حالة المواجهة).	﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ . . .﴾ [الفتح: ٢٩].
٦١	الرحمة واللِّين تجاه أهل الإيمان.	﴿. . . رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ . . .﴾ [الفتح: ٢٩].
٦٢	كثرة الركوع والسجود (أي الصلاة).	﴿. . . تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا . . .﴾ [الفتح: ٢٩].
٦٣	طلب رضوان الله وفضله، وجَعْلِهما غاية الحياة الدنيا.	﴿. . . يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا. . .﴾ [الفتح: ٨].
٦٤	حصول سيما الصلاح في الوجه نتيجة العبادة، وخاصة السجود.	﴿. . . سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ. . .﴾ [الفتح: ٢٩].
٦٥	تَشَبُّه أهل الإيمان في نشأتهم وتقوية بعضهم لبعض، واعتمادهم على أنفسِهم (بعد التوكل على الله) بالشّجرة الطيِّبة.	﴿. . . وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ . . .﴾ [الفتح: ٢٩].
٦٦	إغاظتهم للكفار بسب نشاطهم وجِدِّيتهم وخطورتهم على وجودهم.	﴿. . . لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩].
٦٧	الخشوع في الصلاة.	﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾ [المؤمنون].
٦٨	والإعراض عن اللّغو (وهو كل ما لا فائدة فيه من قولٍ أو فعل)(١).	﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣﴾ [المؤمنون].

(١) المصباح المنير، ص٢٨٦.

التسلسل	نوعية الأثر والثمرة الإيمانية	الآيات التي أخذت منها
٦٩	تزكية النفس (أي عملياً وليس بالقول) (وسنشرح مفهوم التزكية في الفصل الأول من الباب الثالث بإذن الله تعالى).	﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون].
٧٠	حفظ الفرج إلّا من الحلال (وهذا لا يتأتي إلّا بتجنُّب مقدمات الزنى من نظرةٍ بشهوة، وخَلْوةٍ.. إلخ).	﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾﴾ [المؤمنون].
٧١ و٧٢	صيانة الأمانة من الضِّياع، ورعاية العهد من الغَدْر وعدم الوفاء به.	﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون].
٧٣	المحافظة على الصلوات باطنها وظاهرها.	﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون].
٧٤ و٧٥	اجتناب كبائر الإثم، والفواحش.	﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ... ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى].
٧٦	العفو والمغفرة عند فَوَرانِ الغَضَب.	﴿... وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].
٧٧	الإستجابة لأوامر الرّب تبارك وتعالى.	﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ [الشورى: ٣٨].
٧٨	إدارةُ الأمور على أساس الشورى.	﴿... وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].
٧٩	الإنتقام عند التَعَرُّض للأذى والعدوان.	﴿... وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى: ٣٩].

التسلسل	نوعية الأثر والثمرة الإيمانية	الآيات التي أخذت منها
٨٠	الردّ على العدوان بمثله بلا تجاوز الحدود.	﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ . . .﴾ [الشورى: ٤٠].
٨١	ترجيح العفو على أخذ الثأر، إن كان العفو يؤدّي إلى الصّلاح والإصلاح.	﴿. . . فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].
٨٢	عدم الإشراك بالله تعالى.	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩﴾ [المؤمنون].
٨٣ و٨٤	القيام بكل ما يمكن من الأعمال الصّالحة، مع وَجَلِ القلب من الرجوع إلى الربّ العظيم.	﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ [المؤمنون].
٨٥	المسارعة في الخيرات وسبق الآخرين فيها.	﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

ameer.maktab@yahoo.com

/AliBapir /AliBapir /MediaAmeerOffice

www.alibapir.net

الفصل الثامن

نتائِج وبركات الإِيمان الأُخرويّة

ولـمعرفة نتائج وبركات الإِيمان التي تتجلَّى في الآخرة لأهل الإيـمان، لِنتأمَّلْ هذه الآيات البيِّنـات:

قال الله سبحانه وتعالى:

١ - ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر].

٢ - ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

٣ - ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر].

٤ - ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التيـن].

٥ - ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾ [الجاثيـة].

٦ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف].

٧ - ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة].

٨ - ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة].

٩ - ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف].

١٠ - ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور].

١١ - ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر].

١٢ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب].

ونُلَخِّصُ ما يتمَّخض عنه الإيمانُ من بركات ونتائج في الآخرة، في ضوءِ الآيات المدرجة أعلاه بإذن الله وفضله، في النقاط التالية:

١ ـ أهلُ الإيـمان الصّالحون، لا يتساوون مع أهل الكفر المفسدين، فـي ميزان الله الحكيم:

وهذا ما صرَّحت به كل من الآية (٥٨) من غافر و(٢٨) من (ص).

٢ ـ لا يمكن أن ينجو أيُّ إنسانٍ من الخسارة الكبرى في الآخرة، ما لم يمتلك الإِيمانَ والعمَلَ الصّالح، وتوصِيةَ الآخرين بإتِّباع الحق وتوصيتهم بالصّبر:

وهذا ما بيَّنتهُ سورة (العصر) المباركة، والمقصود بالخسر في الآية (١) من العصر، هو الشَّقاء الأَبَديُّ الذي يتمثل في دخول نار جهنَّم، إذ لا خسارة أكبَرُ وأفدحُ من هذا.

٣ ـ كلُّ إنسانٍ يَنْحَطُّ ويَتَسَفَّلُ إلـى أحطِّ الدَّرَكات، باستثناء أهل الإِيمان:

وهذا ما بيَّنَتْهُ سورة (التيـن) المباركة.

٤ ـ أهلُ الإِيمان والعمل الصّالح، يتغمَّدهم الله تعالى في الآخرة برحمتـه:

كما نصَّت عليه الآية (٣٠) من (الجاثية).

٥ ـ يُنْزِل الله الكريم أَهْلَ الإِيمان والعمل الصالح، ضيوفاً في جنَّات الفردوس، ولا يريدون التحوّل عنها أبداً:

وهذا ما جَلَّتْهُ الآيتان (١٠٧و١٠٨) من (الكهف).

٦ ـ أهلُ الإِيمان والعمل الصالح، هم أفضلُ الخليقة، ويُخلَّدون في الجنة أبداً، ويرضى الله عنهم ويُرضيهم:

كما بيَّنَتْ ذلك الآيتان (٧ و٨) من (البيِّنـة).

٧ ـ الذكور والإناث من أهل الإِيمان سواءٌ في نيل الجنّات ورضوان الله:

وهذا ما نصَّتْ عليه الآية (٧٢) من (التوبة).

٨ ـ يدخل أهلُ الإيمان الجنَّة مع أزواجهم المؤمنات، مسرورين سعداء:

كما بيَّنتْه الآيات (٦٨ و٦٩ و٧٠) من (الزخرف)، والحبور هو السرور والفرح الشديد الذي يَظْهَر أَثَرَه[1].

٩ ـ لأهل الإيمان في الآخرة ما تشتهيه أنفُسُهم، وتَلْتَذُّ برؤيته أعينهم: وهو ما نصَّتْ عليه الآية (٧١) من (الزخرف).

١٠ ـ يقال لأهل الإيمان في الجنة: هذا هو جزاء أعمالكم الصّالحة:

كما بيَّنته الآية (٢١) من (الزخرف)، ولا شك أن نعيم الجنَّة والخلود فيها، لَيْسَ متساوياً مع الأعمال الصّالحة لأهل الإيمان، ولكن هو فضلُ الله ورحمته وكرمه.

١١ ـ يُلْحِقُ الله الكريم ذُرِيَّةَ أهل الإيمان المؤمنة بهم في الجنَّة، من غير أن يَنْقُصَ من درَجاتهم:

كما بيَّنته الآية (٢١) من (الطَّور)، والمقصود بقوله تعالى: ﴿...وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[2]، هو أن الله تعالى لا ينقص من درجات الآباء العالية لِيَلْتَحِقَ بهم أولادهم في الدرجات التي هي دونها، بل يرفع من درجات الأولاد النازلة كيْ يُلْحِقَهُمْ بآبائهم، هذا هو ما يظهر من ظاهر الآية ـ والله هو العليم الحكيم ـ.

١٢ ـ الملائكة الحاملون للعرش والذين حوله، يستغفرون لأهل الإيمان:

كما في الآية (٧) من (غافر)، ومن الواضح أنَّ دعاءَ الملائكة الكرام مقبولٌ عند الله الكريم.

---

(١) المعجم الوسيط، ص ١٥١، (حَبَرَهُ يَحْبُرُهُ حُبُراً: سَرَّهُ وَنَعَّمَهُ، وحَبِرَ يَحْبَرُ حَبَراً: ابتهج ونَضِرَ).

(٢) أَلَتَ الشيءُ يَأْلِتُ أَلْتاً: نَقَصَ، ويُستعمل متعدِّياً أيضاً فَيُقالُ: أَلَتَهُ: نقصه). المصباح المنير ص ١٥.

١٣ ـ كذلك يسألون الله تعالى لهم وللصّالحين، من آبائهم وأزواجهم وذريّاتهم، الجنَّة والوقاية من مصائب يوم القيامة:

كما في الآيتين (٨ و٩) من (غافر).

إذن: سَيَجْمَعُ الله تعالى شَمْلَ أهل الإيمان مع أقاربهم، سواءً من الأصول أو الفروع، ولكن بِشَرْطِ إيمانهم وصلاحهم، وهذا ما يتمنَّاه الإنسانُ من أعماق فطرته التي فطره الله تعالى عليها.

١٤ ـ يَحظى أهلُ الإيمان الذاكرين الله الكريم، بصلوات الله وملائكته الكرام:

كما بيَّنته الآية (٤٣) من (الأحزاب).

وصلواتُ الله العظيم جلّ شأنه، هي إفاضَتُهُ رَحْمَتَهُ وفَضْلَهُ وكَرَمَهُ عليهم[1]، وأما صلوات الملائكة الكرام، فهي طلب ذلك لهم من الله الرحيم جلّ وعلا.

١٥ ـ أهل الإيمان يَحْظَوْن يوم القيامة بسلام الله السَّلام وأجره الكريم:

وهذا ما صرَّحت به الآية (٤٤) من (الأحزاب).

ونكتفي بهذا القدر، في بيان نتائج وبركات الإيمان الأُخروية، وسنتحدَّثُ في الفصل السادس من هذا الباب ـ أي الكتاب الثامن من هذه الموسوعة ـ بإذن الله العليم، بشيءٍ من التفصيل، عن الجنّة التي أعدَّها الله الكريم الوهّاب لأهل الإيمان في الآخرة.

وننتقل الآن إلى الفصل التاسع بتوفيق الله.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) (الصلاة في اللغة مُشتركة بين الدعاءِ والتعظيم والرحمة والبركة) المصباح المنير ص ١٨٠.

الفصل التاسع

الـفَرْقُ بين الإيمـان والمؤمن، من جانبٍ، والإسـلامِ والمسـلم، من جانبٍ آخر

ولمعرفة الفرق بين كلّ من: (الإسلام والإِيمان) و(المسلم والمؤمن) وأين يلتقيان وأين يفترقان؟ لا بدّ أولاً، أن نَتَعرَّف على مفهوم كلّ من (الإسلام) و(المسلم) و(أَسْلَم) كما تعرَّفْنا سابِقاً على مفهوم كلّ من (الإِيمان) و(المؤمن) كي يتسنَّى لنا المقارنة والتبيُّن.

فَلْنَتأمَّل هذه الآيات المباركات:

قال الله تبارك اسمه، وتعالى جِدّه، ولا إلٰه غيره:

* ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ...﴾ [آل عمران: ١٩].

* ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

* ﴿...ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ...﴾ [المائدة: ٣].

* ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ ...﴾ [الأنعام: ١٢٥].

* ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ...﴾ [الزمر: ٢٢].

* ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِۚ . . .﴾ [الصف: ٧].

* ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ . . .﴾ [التوبة: ٧٤].

* ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُمۖ . . .﴾ [الحجرات: ١٧].

* ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس].

* ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة].

* ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة].

* ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس].

* ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة].

* ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران].

* ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

* ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا

ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران].

* ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء].

* ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة].

* ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت].

* ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ. . .﴾ [الأحزاب: ٣٥].

* ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الحجر].

* ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة].

* ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام].

* ﴿۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات].

* ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات].

* ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران].

* ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ . . .﴾ [المائدة: ٤٤].

* ﴿. . . قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

* ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران].

* ﴿. . .هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا . . .﴾ [الحج: ٧٨].

* ﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزخرف].

* ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات].

* ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة].

والآن لِنُدقِّق النظر في الآيات المباركات المدرجة أعلاه، للتعرُّف على مفهوم كلٍ من: (الإسلام) و(المسلم) و(أسلم):

أولاً: الإسـلام:

استعملت كلمة (الإسلام) في كتاب الله الحكيم، بثلاثة معانٍ:

١ ـ دين الله الحق، المتمثل في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

٢ ـ الإستسلام الكامل لله تبارك وتعالى.

٣ ـ التمسُّكُ الظاهريُّ بالإسلام (دين الله الحقّ)، من غير إيمانٍ به.

وهذا هو إيضاح كيفية دلالة الآيات المباركات، على كل من هذه المعاني الثلاثة بالترتيب:

١ ـ الإسلام بـمعنـى دين الله الحـقّ:

وهذا المعنى يكون مقصوداً في الآيات، عندما تَرِدُ لَفْظَةُ (الإسلام) مُعَرَّفاً بالألف واللاّم، وذلك كقوله تعالى في الآية (١٩) من (آل عمران): ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ أي إن الله تعالى لا يَعُدُّ غيرَ الإسلام المتمثل في كتابه وسنة نبيِّهِ، ديناً ومنهجاً جديراً بـحياة البشرية وجديراً بالإتّباع، وعليه فكلُّ الأديان والمناهج الأُخرى تُعتَبر باطلة وزائفة.

وكقوله تعالى في الآية (٨٥) من (آل عمران): ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾، حيث أعلن سبحانه وتعالى، أن كلَّ من طلب غير الإسلام منهجاً وديناً آخر لحياته، فلا يقبل منه وهو في عداد الخاسرين يوم القيامة.

وكذلك كقوله تعالى: ﴿. . . ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ. . .﴾ [المائدة: ٣]، حيث يخاطب الله تبارك وتعالى نبيَّه والمؤمنين مُخْبِراً إيّاهم، أنّه قد أكْمَل لهم دِينَهم (أي: منهج حياتهم)[١]، وأنه أتمَّ عليهم نعمته، وأنه ارتضى لهم الإسلامَ ديناً.

٢ ـ الإسلام بـمعنـى الإستسلام الكامـل لله تعالى:

وهذا المعنى يُقْصَدُ في الآية عندما تَرِدُ كلمةُ الإسلام مُعَرَّفاً بالألف واللاّم أيضاً، ولا توجد قرينةٌ على أن المقصود هو (دين الله الحق)، وذلك مثل قوله تعالى في الآيه (١٢٥) من (الأنعام): ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ . . .﴾، وقوله تعالى في الآية (٢٢) من (الزمر): ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ. . .﴾، وقوله تعالى في

(١) سنشرح مفهوم كلمة (الدين) في الفصل الثالث من الباب الثالث ـ أي الكتاب الحادي عشر ـ إن شاء الله تعالى.

الآيـة (٧) مـن (الـصـف): ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

وإنّـما قـلـنـا أن الـمـقـصـود بـكـلـمـة (الإسـلام) فـي هـذه الآيـات، هـو الإستسلام التامُّ الكامِلُ لله تعالى، بخلاف الآيات السابقة التي وَرَدتْ فيها كَلِمَةُ الإسلام بمعنى (منهج الله الحق)، لأنَّ هذه الآيات قُرِنَتْ فيها كَلِمةُ الإسلام مفردةً في السياق، لِذا رجَّحْنا أَنَّ المقصودَ بها هو أصل معناها اللُّغوي، الذي هو الإستسلام التام والخضوع الكامل لله تبارك وتعالى.

ولا شك أن (دين الله الحق) و(الإستسلام الكامل لله)، قريبان جداً، بَلْ متلازِمان، وذلك لأن دين الله الحق، يسْتلْزِمُ الإستسلامَ الكامِلَ لله تعالى، وكذلك الإستسلامُ الكامِلُ لله تعالى، لا يَتَحقَّق إلّا باتِّباع دين الله الحق، والإلتزام بأحكامه وتعاليمه التي يحتويها كتابُ الله وسُنَّةُ رسولِهِ ﷺ، ولهذا: فَحَتّى على رأي مَنْ يُفسِّرُ (الإسلامَ) في الآيات المدرجة أعلاه كلِّها بـمعنى (الإستسلام الكامل لله) لا تختلف النتيجة، وذلك لأن الإستسلام الكامل لله تعالى، لا يمكن بدون الإلتزام بالإسلام المتَمثِّل في الكتاب والسنة!

٣ ـ الإسلام بـمعنـى التمسّك الظاهري بالإسلام (دين الله الحق) من غيـر إيـمانٍ به:

وذلك كحالة إسلام المنافقين، وإسلام الأعراب السَّطحيِّ الظاهري، كما قال تعالى عن المنافقين في الآية (٧٣) من (التوبة): ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾، وكذلك قال عن الأعراب في الآية (١٧) من (الحجرات): ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

هذا بالنسبة لكلمة (الإسلام) الواردة في كتاب الله بِلَفْظِهِ الصَّريح.

ثانياً: المسلم:

وأما كلمة (المُسْلِم) ـ ويعني الشخص الذي استسلم لله تعالى وخَضَعَ له باختياره بِاتِّباع دينه ـ فلم تَرِدْ في كتاب الله إلّا بمعنىً واحد، وهو: (المستسلم لله تعالى والمتمسِّك بالإسلام (دين الله الحق) ظاهراً وباطناً).

أي أن كلمة المسلم وبِصِيَغِها المختلفة (مسلم، مسْلِمَيْن، مسلِمون، مُسلمين، مُسْلِمة، مُسْلمات) لَمْ تَرِدْ في كتاب الله إلا بالمفهوم الذي تدلُّ عليه كلمة (المؤمن)، ثم إنّ كلمة (المسلم) هي عنوان أهل الإيمان كلِّهم، منذ (نوح) عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل منذ (آدم) عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى النَّبيِّ الخاتم (محمد) ﷺ وأمته.

وهذا هو بيان كيفية دلالة آيات كتاب الله الحكيم على كلتا المسألتين:

(أ) كون كلمة (المسلم) بمعنى: المُسْتَسْلِم لله تعالى والمُتَمَسِّك بالإسلام ظاهراً وباطناً:

وتَدُلُّ على هذة الحقيقة عِدَّة آياتٍ مباركاتٍ، منها:

١ ـ الآيتان (١٦٢و١٦٣) من (الأنعام): ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام]، وكيفية دلالة هاتين الآيتين على المعنى المذكور واضحة، لأن الله تعالى لا يأمر رسولَهُ النبيَّ الخاتَمَ ﷺ إلّا بما هو أَكمَلُ وأَفْضَلُ، ثم لا تكون صلاة الإنسان ونسكُهُ وحياتُهُ وموتُه لله تعالى، وبعيداً عن الشِّرك، إلّا بالإستسلام الكامِلِ له، والذي يتمثل في إتِّباع دينه وشريعته.

٢ ـ الآية (٦٤) من (آل عمران)، إذ يأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يَدْعو أهل الكتاب إلى قاسمٍ مُشْتركٍ بين كل الشرائع الربَّانية، وهي عبادة الله وحده، وعدم الإشراكِ به، وعدم اتخاذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، ثم يقول تعالى: ﴿...فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾،

إذن: فالمسلمون هم الموحِّدون المُخْلِصون لله تعالى، والمُنْقادون لدينه وأمره ونهيه.

٣ ـ الآية (١٠٨) من (الأنبياء): ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾، ودلالة الآية واضحة على أن (المسلم) هو الموحِّد الذي يعبد الله تعالى خالِصاً مُخْلِصاً، وذلك لأن الله تعالى أمر نبيَّه الخاتم ﷺ أن يُعْلِن أنه لم يوحَ إليه غيرُ توحيد الله في ألوهيته، ثم أن يسأل الناس (المدعويين) هَلْ يصيرون مسلمين أم لا؟ وهذا يعني أنَّ المسلِمَ الحقَّ، هو وحده العابِدُ لله تعالى، ومُوَحِّدٌ إياه.

٤ ـ الآية (١٣٦) من (البقرة) والتي يأمر الله تعالى نبيَّه الخاتم وأمته أن يُعْلِنوا إيمانَهم بالله، وبما أنزله إليهم، وما أنزله إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما آتاه عيسى وموسى وغيرَهم من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأن يُعْلِنوا في الختام كونَهُمْ مُسْلِمين: ﴿...وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، وهذا يُفهم منه أن ذلك الإسلامَ المُعْلَنَ عنه، يتضمَّنُ الإيمانَ الذي سبق ذكره، وبناءً عليه: فكلمة (مسلمون) تعني المستسلمون لله تعالى، كمالَ الإستسلام وغايَتَه.

٥ ـ الآية (٣٣) من (فصلت): ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾، ودلالتها واضحة جداً، لأنَّ الله تعالى ذكر ثلاثة أشياءَ فيمن أثنى عليه بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾، وهي:

١ ـ دعا الى الله.

٢ ـ وعَمِل صالحاً.

٣ ـ وقال إنَّني من المسلمين.

ولا شكَّ أنه لا يكون الإنتساب إلى المسلمين بهذه المثابة، إلّا إذا كان المسلمون هم أحسَنَ الناس وأفْضَلَهُم!

٦ ـ الآية (٣٥) من (الأحزاب) والتي يُعدِّد الله تعالى فيها عشرة

أوصاف للذكور والإناث من أهل الإيـمان، أوَّلُـها الإسلامُ، ثم الإيـمانُ، ثم القنوتُ، ثـم الصِّدقُ، ثم الصَّبـرُ، ثـم الخُشوعُ، ثم التَصُّدقُ، ثم الصِّيامُ، ثم حِفْظُ الفـرْج، ثـم ذِكْرُ الله كثيـراً.

وترتيب هذه الأوصاف على هذه الشاكلة ـ كما أرى ـ هو ترتيب متدرِّج من الأعلى إلى الأدنـى، وبناءً عليه: فكون الإنسان ـ ذكراً أو أنثـى ـ (مُسلِماً) هو أعظم الأوصاف، وليس ذلك إلّا لأَنَّ الإسلام الذي يشتمل عليه مفهومُ (مسلم)، يتضمَّن ويَحْتَوي في نفسه الأوصاف التسعة الأخرى، وذلك لأن الإِستسلامَ الكامِلَ لله تعالى، يُثْمِرُ كُلَّ الفضائل في الإنسان المسلم.

٧ ـ الآيـة (٢) مـن (الـحـجـر): ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾، ودلالة هذه الآية على أن كلمـة (المسلم) هو المستسـلم لله تعالى، والملتـزم بدينه ظاهِراً وباطِنـاً، جَلِيَّـة أيضاً، لأن الكافرين لا يَتَمنَّوْن في الآخرة، إلّا أفضل الأَشياء وأَدْعاها للنجـاة!

(ب) كـون كلمة (مسلم) عنـواناً لأهـل الإيـمان كلّهم، من (آدم) إلـى النبـي الخاتـم ـ عَلَيْهِما الصَّلاةُ وَالسَّلام ـ وأمته من بعـده:

١ ـ الآيـة (٨٧) مـن (الـحـج) ﴿...هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ والـمُـخـاطَـبُ فـي الآية هم المسلمون في أمة (محمد) ﷺ ولكِنَّ الله تعالى يعتبـر أُمَّـة محمدٍ المسلمة، امتداداً لأمة المسلمين الـمُمْتَدَّة عبـر الزمان بقيادة الأنبياء ـ عَلَيْهِم الصَّلاةُ وَالسَّلام ـ، كما قال تعالى بعد أن ذكر عدداً كثيراً من أنبيائه الكرام وهـم ـ حسب ترتيب ورود أسـمائهم في ذلك الـموضـع من كتـاب الله: (إبـراهـيـم، إسـحـاق، يـعـقـوب، لـوط، نـوح، داود، سـلـيـمـان، أيـوب، إسـماعيل، إدريس، ذو الكفل، يونس، زكريا، يحيـى، عيسى): ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء].

وقـولـه تـعـالـى: ﴿...هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي من قبل نزول القرآن، وفي هذا القرآن، وهذا التعبير يَشْمُلُ كُلَّ الكتب التي سَبَقَتْ نزولَ القرآن، والقرآن نَفْسه، وبناءً عليه: فـ(المسلم) هو الإِسمُ الذي يُسَمِّي الله تعالى به كلَّ عبادِهِ المختارين، منذ أن وَطِئَتْ أقدامُ أول مسلم ومسلمة (آدم وحوّاء) ـ عليهما السلام ـ هذه الأرض!

٢ ـ في الآية (٧٢) من (يونس) يخاطِبُ (نوح) عليه السلام قومَه، بقوله: ﴿...وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

٣ ـ وفي الآية (١٣٢) من (البقرة) يُبَيِّن الله تعالى أن كلاً من (إبراهيم) وحفيدِهِ (يعقوب بن إسحاق) عليه السلام قد وَصَّيَا أبْناءَهُما بقولهما: ﴿...يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

٤ ـ وفي الآية (١٣٣) من (البقرة) يُبيِّن سبحانه وتعالى أن نفس وَصِيَّةِ إبراهيم ويعقوب السابقة، قد وصَّى بها يعقوبُ أبناءَه، في حالة ما قبل الموت والإحْتضار.

٥ ـ وفي الآية (٨٤) من (يونس) أطلق موسى عليه السلام لَقَب (المسلمين) على قومه المؤمنين به والتابعين له.

٦ و٧ ـ وفي الآيتين (٧٩) من (آل عمران) و(١١١) من (المائدة) اُستعملت كلمة (المسلمون) كعنوان لكلّ من (الحواريين) خصوصاً و(النصارى) التابعين لـ(عيسى) عليه السلام عموماً.

ثالثاً: أسلم:

وكلمة (أسلم) تأتي في كتاب الله تعالى بمعنيين:

أولُهما: الدخولُ الصادِقُ في الإسلام، والإستسلامُ الكامِلُ لله تعالى:

وهذا هو المعنى الأغلب له في استعمالات كتاب الله، كما هو واضح في الآيات الآتية:

١ ـ الآية (١٣١) من (البقرة) حيث يَمْدَحُ الله تعالى فيها عَبْدَه المصطفى إبراهيمَ عليه السلام، **ثم يقول:** ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

٢ ـ الآية (٤٤) من (المائدة) والتي يَصِفُ الله تعالى فيها الأنبياءَ الحاكمين بالتوراة، بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِۚ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

٣ ـ وفي الآية (٤٤) من (النَّمل) والتي تُعْلِنُ فيها مَلِكَةُ سبأ، موقفها بعد اهتدائها بهداية الله على يد سليمان عليه السلام قائلة: ﴿... رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٤ ـ وفي الآية (٢٠) من (آل عمران) إذْ يأمر الله تعالى نبيَّه، أن يقول في جواب محاججة أهل الكتاب والمشركين: ﴿...أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ وأَنْ يقول لأهل الكتاب والمشركين: (هل أسلموا؟!): ﴿...وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ﴾، ثم يقول تعالى: ﴿...فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، كما نرى جعل الله تعالى (أسلموا) مساوياً لـ(اهتدوا)، ونقيضاً لـ(تَوَلَّوا)، ومن الواضح أنَّ (أَسْلَمَ) لا يكون مساوياً للإهتداء ونقيضاً للتولِّيَ، إلّا إذا كان بمعنى الدخول الصادق في دين الله، والإستسلام الكامل لله تعالى.

٥ ـ ويدل قوله تعالى في الآية (٨٣) من (آل عمران): ﴿...وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ على نفس المعنى، والظاهر أن المقصود بالإستسلام الكَرْهيِّ، هو انقيادُ

المخلوقاتِ كلِّها في جانبها اللاّإراديِّ، لسنن الله ونواميسه الحاكمة على الوجود.

ثـانيهما: الدخول الظـاهريُّ السَّطحيُّ في الإسلام (أي قالباً بلا قلب):

وتدلُّ على هذا المعنى الآيتـان (١٤ و١٧) من (الحجرات)، إذ يقول تعالى فيهما: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ . . .﴾، ودلالة سياق الآيات واضحة وبيِّنة على أن المقصودَ بكلمة (أسلم) في الموضعين، هو الدخولُ الظاهريُّ السَّطحيُّ في الإسلام، من دون أن يكون للقلب فيه حَظٌّ ولا نصيب.

مقارنة بين الإيمان والإسلام، والمؤمن والمسلم

والآن بعد أن أَلْقَينا ضوءَ آيات كتاب الله المبين، على مفهوم كلمات (الإسلام) و(المسلم) و(أسلَم)، لِنُلَخِّصْ ما توصَّلنا إليه من حقائق، بصدد مفاهيم تلك الكلمات في نقاط، ولْنَنْظُرْ أيْن يَلْتَقي مفهوما (الإِيمان والإسلام) و(المؤمن والمسلم) وأين يتباينان ويختلفان؟ وذلك في النقاط العشر الآتية:

١) لم تأت كلمة (الإسلام) الـمُعرَّف بالألف واللاّم في القرآن، إلّا بمعنيين وهما: (دين الله الحق) ـ المتمثل في الكتاب والسنَّة ـ، والإستسلام الكامل لله تعالى، وهذا الثاني أيضاً راجعٌ للأوّل، لأن الإستسلام الكامل لا يحصل إلّا بالإلتزام التام بدين الله الحقّ، ويمكننا القولُ:

إن الإسلام بمعناهُ الأول، نتيجة عن الإسلام بمعناه الثاني.

٢) وقد تأتي كَلِمةُ (إسلام) بدون (أل) التعريف، بلْ بالإضافة إلى ضمير (كُمْ) المخاطَب، أو (هُمْ) الغائِب: (إسلامَكم) و(إسلامِهِمْ)، ويقصد بها، التظاهر بالإسلام، والإلتزامُ الشكليُّ ببعض أعماله وأحكامه.

٣) أما كلمة (مسلم) وذلك بِصِيَغ: (مسلِماً، مسْلِمَيْن، مسلمون، مُسلِمين، مُسْلِمة، مسلمات)، فلم تَرِدْ في كتاب الله الحكيم إلّا بمعنىً واحد فقط، وهو «الإنسان المستسلم استسلاماً تامّاً لله، والمتمسِّك بدين الله الحق قَلْباً وقالِباً».

٤) ولكن لفظ (أسلَمْ) والذي يعني: الدخول في الإسلام، أو الخضوع، أو الإستسلام لله تعالى، فقد ورد بكِلا مَعْنيي:

أ ـ الدخول الصادِقُ في الإسلام، أو الإستسلامُ الكامِلُ لله تعالى.

ب ـ الدخولُ الظاهِريُّ في الإسلام، أو التظاهَرُ بالإستسلام لله.

٥) وقد ورد لفظ (المسلمين) كمرادف لكل من لفظي (آمنوا) و(مؤمنين) مرَّتين في كتاب الله المبارك، كما في الآية (٦٩) في (الزخرف): ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٦٩﴾، والآيتين (٣٥ و٣٦) من (الذاريات): ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٣٦﴾.

٦) وقد مدح الله تعالى أنبياءَهُ ـ عَلَيْهِم الصَّلاةُ وَالسَّلام ـ بِلَفْظَيْ (مسلم) و(أسلم) أكثر منه بِلَفْظَيْ (مؤمن) و(آمن)، والحكمة في ذلك هي: أن (الإسلام) أبلغ في المدح من (الإيمان)، لأنَّ الإسلام يشتملُ على الإيمان، ولكن الإيمان يسْتَلْزِمُ الإسلام، من دون اشتمالٍ عليه.

٧) وبناءً على ما مرَّ ذكره، يمكننا القول:

إنَّ كلاً من لفظي: (الإيمان والإسلام)، أو (المؤمن والمسلم)، أو (آمن وأسلم)، عندما يَرِدُ في سياقٍ منفردٍ، يدلُّ على الآخر أيضاً، أي يتسع مفهومه حتى يشتمل عليه، ولكن عندما يَرِدانِ ـ أي الإيمان والإسلام، أو المؤمن والمسلم، أو آمن وأسلم ـ في سياق واحد مُقْتَرِنَيْنِ، يتباين مفهومُهما، فيختصُّ مفهومُ الإيمان أو المؤمن أو آمن، بالجانب الباطنيِّ المَخْفيِّ، ومفهومُ الإسلام أو المسلم أو أسلم، بالجانب الظاهريِّ العَلَنيَّ، ولهذا قال العلماء بهذا الصَّدد: «إذ انفردا اتفقا، وإذا اقترنا اختلفا».

هذا، ولولا ورود كلمة (مسلم) في السنَّة النَّبـوية[1] بـمعنى: المستسلم الظاهري ـ أي المنافق أو الذي لم يتمكن الإيمانُ في قلبه بعد ـ لَما قلنا بأن لفظ (مسلم) يعني غير المسلم الحَقِّ المُلْتَزِم بدين الله، والمستسلم لله حق الإستسلام، لأنه لم يَرِدْ في كتاب الله الحكيمَ إلّا بـهذا المعنى وحده.

٨) بـما أنَّ الإسلام ـ المعرَّف بالأَلِفِ واللاّم ـ يعنـي: (دين الله الحق) الّذي أنزله على محمد ﷺ وكذلك على كل أنبيائه الآخرين ـ عَلَيْهِم الصَّلاةُ وَالسَّلام ـ، لذا يعتبرُ لفظا: (الدين) و(الإسلام) من هذا الجانب كلفظين مُتَرادِفَيْـنِ، لأَنَّ كِلَيْهما يعنـيان: المنهج الذي أنزله الله تعالى على خاتم النَّبيِّيـن محمد ﷺ والذي يَتَمَثَّلُ في الكتاب والسنة، ولكن مع فارقٍ واحدٍ، وهو أَنَّ لَفْظَ (الدين) يَشْمُلُ مفهومُهُ (الدين الحق) والأديان الباطلة، ولكنَّ لَفْظَ (الإسلام) لا يشمل غير (دين الله الحق)، ولهذا لم يستعمل كتاب الله لفظ (الدين) بـمعنى (الإسلام)، إلّا وقيَّده بوصفٍ أو قرينـةٍ، لينحصر مفهومه فيه، وهذه آيات مباركات، تبيِّن ما قلناه بوضوح:

١ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح].

٢ ـ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾ [النصر].

٣ ـ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ...﴾ [آل عمران: ١٩].

٤ ـ ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا...﴾ [الأنعام: ١٦١].

٥ ـ ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

(١) كما في هذا الحديث: «عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَسَّمَ بَيْنَ النَّاسِ قَسْماً فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ﷺ أَعْطِ فُلَاناً فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ، قَالَ: أَوْ مُسْلِمٌ...» (البُخَارِيُّ برقم: (٢٧)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٣٦)).

٦ ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ...﴾ [النور: ٥٥].

٧ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ... لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون ١ ـ ٦].

٨ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى...﴾ [يونس: ١٠٤].

ويُسْتَنْتَجُ ممّا مرَّ ذكره، أنَّ مفهومَ الإسلام ـ المعرَّف بالألَف واللاّم ـ واسعٌ وشامل بِقَدَرِ سَعَةِ وشُمول مفهوم (دين الحق)، إذ هما وجهان لحقيقة واحدة، وعنوانان يدلّان على هدفٍ واحدٍ، ولكنَّ الإيمانَ هو الموقف الإيجابيُّ تجاهَ دين الله الحق (الإسلام)، وهو التصميم الجِدِّيُّ على التزامه، ولهذا ينقسم إلى درجات وأنواع، وتطرأ عليه الزيادة والنقصان.

٩ ـ وحديثُ رسول الله ﷺ المشهور بحديث جبريل، والذي رواه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب ﷺ والذي يعرِّف فيه رسولُ الله ﷺ الإسْلَامُ بـ «**أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**»[1]، **والإيمان بـ(أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورُسُله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه)، والإحسانَ بـ «أَنْ تَعبد الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[2] دليلٌ على ما قلنا ـ بأن مفهوم الإسلام والإيمان يتباينان ويَخْتَلفان إذا وردا في سياقٍ مُقْتَرِنَيْن ـ حيث عرَّف رسولُ الله ﷺ (الإيمان) هنا بأركانه الستة التي مستقرُّها القلب، وعرَّف الإسلام بأركانه الخمسة الظاهرة العلنية، وعَرَّف الإحسانَ (أو التزكية) لا بشيء زائدٍ عن الإيمان والإسلام، إذْ لا زيادة عليهما ـ في مجال التديُّن الشخصيِّ ـ سوى الإجادَةِ والإتقانِ فيهما، وهذا هو معنى قوله ﷺ «**أَنْ تَعبد الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ،**

(١) صحيح مسلم: ١، وصحيح البخاري عن أبي هريرة: ٥٠، بلفظٍ قريب منه، وسيأتي نص الحديث في الفصل الأول من الكتاب الثالث.

(٢) (دليلٌ) خبرٌ لـ(حديث رسول الله ﷺ) في بداية الفقرة.

فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» حيث يُفَسِّرُ رسولُ الله ﷺ الإحسانَ بأداءِ العبادة في حالة المشاهدة أو مراقبة الله، ومن الواضح أن مفهوم العبادة شامِلٌ للإيمان والإسلام، إذ العبادة عبارة عن الإستسلام لله تعالى قلْباً (إيماناً) وقالِباً (إسلاماً).

ولكن يجب التَنَبُّهُ إلى حقيقةِ أنَّ المقصودَ بالإيمان والإسلام والإحسان، في هذا الحديث، إنما هو التَديُّن والإلتزامُ الشخصيُّ بالإسلام (دين الله الحق)، وإلّا فمفهوم (الإسلام) أوسَعُ من أن يَنْحَصِر في الأركان الخمسة المذكورة، وإلّا فأين الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، والجهادُ في سبيل الله، وغيرهما من فرائض الإسلام الكبرى ووظائفه المهمّة؟!

١٠ ـ وسبب تسمية الله تعالى بعضَ الأعمال الظاهرة إيماناً، هو أنَّ الإيمانَ إنْ كان إيماناً حقيقيّاً، يستلْزِمْ ويُثْمِرُ ـ لا محالة ـ الإلتزامَ بالإسلام، أو بتعبير آخر: إنَّ الإيمان الخالِصَ المُسْتَقِرَّ في القلب، يَسْتَلْزِمُ ويُثْمِرُ الإيمانَ العام الظاهِرَ على الجوارح، بحسب قوَّتِهِ وضُعْفِهِ، مثله في ذلك مثل (المغناطيس) الذي يجذب ما يجذبُ، بقدر قوة الجذب الكامنة فيه، شِدَّةً وضُعْفاً، وقد ذكرنا من قبل أنَّ سبَبَ تسميةِ تلك الأعمال إيماناً، هو كونُها ثِمارَ الإيمان وآثارَهُ التي تُلازِمُه، ولا تَنْفَكُّ عنه، كالظلِّ الملازِمِ للجسم، وقد مثّلنا قَبْلُ للإيمان وآثاره الملازمة له، بالشمس وأَشِعَّتِه، ومعلوم أن أشعة الشمس ليست غير الشمس، لأنَّه لا وجود لها بدونها، ولكنّها أيضاً ليست ذاتَها وَعْينَها، بل هي أَثَرُها!

وبهذا نختم الفصل التاسع، وننتقل بإذن الله إلى الفصل العاشر والأخير من هذا الكتاب.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

ameer.maktab@yahoo.com

/AliBapir /AliBapir /MediaAmeerOffice

www.alibapir.net

الفصل العاشر

سَبْعُ مسائل متعلِّقة بالإيمان

ameer.maktab@yahoo.com

/AliBapir /AliBapir /MediaAmeerOffice

www.alibapir.net

وفي هذا الفصل العاشر والأخيـر، نُشير إلى سَبْعِ مسائل مهمّةٍ، تدلُّ عليها بعضُ الآيات المباركات، ونَتَوخىَّ فيها الإيجاز:

الأولـى: إن أكثر الناس يختارون الكفر على الإيمان:

وقد أكدَّت أكثر من آيةٍ كريـمة هذه الحقيقة، فعلى سبيل المثال قال تعالـى:

* ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف].

* ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾ [الرعد].

* ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠﴾ [سبأ].

وإدراك هذه الحقيقة يُرِيحُ قَلْبَ الإنسان المؤمن، من كثير من الهموم والوساوس، بشأن ضلال الناس والأَسَفِ على كفرهم، والتعجُّب والإستغراب من عدم استجابتهم للحق الأبلج، الذي جاء به الأنبياءُ ـ عَلَيْهِم الصَّلاةُ وَالسَّلام والبَرَكات ـ.

الثـانيـة: أكثر النّاسِ يَخْلُطون الشـِّركَ بإيمـانهم:

كـمـا قـال تـعـالـى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف].

ومن المعلوم أنَّ الإيمانَ إذا خالَطهُ الشركُ، نَقَضَهُ وأَفْناه ولا يَبْقى إيـماناً، وبناءً عليه: فالآية تَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ:

أولاً: إنَّ أكثرَ الناس إذا ما آمنوا بالله تعالى، عادوا فَأَشركوا به عَقِبَ إيمانهم، ومن ثمَّ نقضوا إيمانَـهم، بسبب الإشراك بالله، ورجعوا القَهْقَرى إلى الكفر.

ثـانياً: إنَّ أكثرَ الناس لا يعتقدون بخالقية الله وربوبيَّته، ولا يقرّون بهما، إلّا وهم متلَبِّسون بالشِرك به في ألوهيته، وتقديم العبادة لغيره.

أي: إنَّ المقصودَ في الآية بالإيـمان، ليْسَ هو الإيـمانَ الشرعيَّ المعهود، بل المقصود به: الإعتقادُ بخالقية الله وربوبيَّته ومالكيَّته فقط، وذلك لأن الإيـمانَ الشرعيَّ ينافي الشِّركَ ولا يُجامِعُهُ، ولكنَّ الإعتقادَ بخالقية الله وربوبيَّته، لا ينافي الشِّركَ في كل الأحوال، بدليل قوله تعالى عن المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝٨٧﴾ [الزخرف].

ويـمكن أن يكون المقصود بالشرك في الآية، هو الشِّرْكَ الأَصْغَرَ، الذي لا يُخرِجُ صاحِبَهُ من دائرة الإيـمان، ولا يَنفـي عنه صِفَةَ الإيـمان.

الثالثـة: الإيمان الـذي يُخْـلطُ بالشـرك، لا يَنْفَعُ صاحِبَهُ ولا يحقِّق له الأمـن:

كما قال تعالـى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام].

وقد جاء في التفاسيـر وكتب السنة أن الصّحابة ﷺ خافوا منْ هذه الآية كثيـراً، لأنهم فَهِموا كَلِمَةَ (ظلم) في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

﴿يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ على معناها الظاهر، والذي هو التجاوز ومطلق الذنب والإثم، «وَقَالوا: وَأَيُّنا لَمْ يَظْلِمْ؟!» (رواه البُخَارِيُّ برقم: (٤٦٢٩)) فَبَيَّن لهم رسولُ الله ﷺ أنَّ المقصودَ بالظلم في الآية هو الشرك[١]، ولا شك أن الظلم المطلق هو الشرك بالله، لأن الظلم في أصل معناه هو: (وضع الشيء في غير موضعه المناسب) ولا شك أن الشرك بهذا الإعتبار، هو أشنع الظلم وأقبحه، وقال (لقمان) ﷺ لابْنه: ﴿...لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

ومن المعلوم أن الإيمان الذي يُلْبَسُ ويُخلَطُ بالشرك، لا يبقى إيماناً، بل يزولُ ويَفْنى، وهذا هو سبب عدم تحقيقه الأَمْنَ ـ من عذاب الله ـ لصاحبه، وإلّا فإذا بقي الإيمانُ إيماناً، نفَعَ صاحِبَه وحقَّقَ له الأَمْنَ، على الأَقلِّ الأَمْنَ من الخلود الأبدي في جهنَّم، والإيمان (إفعالٌ من الأمن) في رأي بعض العلماء[٢].

لذا فهو ما دام باقياً وموجوداً، يُحَقِّقُ الأَمْنَ لصاحبه ولو جزئياً.

الرابعة: كلمة (آمَنَ) إذا تعدَّت باللّام بدل الباءِ، تغيَّر معناه الى التصديق:

كما قال تعالى على لسان أبناء يعقوب بعد إلقائهم أخاهم (يوسف) عليه السلام في الجُبِّ: ﴿...وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، أي وما أنت بـمُصدِّقٍ لنا، وإن كنّا صادقين في قولنا عن يوسف: (فأكله الذئب).

(١) حيث قال البخاري: عن عبدالله ﷺ لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾...﴾ [الأنعام]، قال أصحابه: وأَيُّنا لم يَظْلِم نَفسَهُ؟! فنزلت: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان].

(٢) قال الراغب: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف]، قيل: معناه: بِمُصدِّقٍ لنا، إلّا أن الإيمان هو التصديق الذي معه أَمْنٌ. مفردات ألفاظ القرآن، ص٩١.

وقال تعالى واصفاً رسولَهُ (محمداً) ﷺ ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ...﴾ [التوبة: ٦١]، إذ معنى [﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾] هو: يؤمِنُ النبيُّ بالله ويُصدِّقُ المؤمنين الصادقين فيما يقولونه، وأما المنافقين الكاذبين، فلا يُصَدِّقُهم وإن سَكَتَ عنهم مداراةً.

وقد قلنا سابقاً بأن التصديق هو جزءٌ من محتويات الإيمان ومكوِّناته، في مقابل التكذيب، الذي هو جزءٌ من أجزاء الكفر ومكوّنٌ من مكوِّناته.

الخامسة: قد تستعمل كلمة (آمَنَ) في غير مجال الإيمان بالحق:

كما قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًاۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت].

والملاحَظُ أن هذه الآية هي الآية الوحيدة في كتاب الله، والتي استعملت فيها كلمة (آمَنَ) للتعبير عن الإعتقاد الباطل، ولعلّ الحكمة في هذه الجملة الفريدة [﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾] التي وردت في هذه الآية الوحيدة، هي:

التنبيه على أنَّ اعتقادَ أهل الباطل بباطلهم وتَعلُّقَهم به، قد يترسَّخُ في قلوبهم، إلى أَنْ يتحَوَّلَ إلى ما يُشْبِهُ الإيمانَ بالحق، ولكن هذه الحالة شاذة ونادرة في أهل الكفر، كندرة تلك الجملة القرآنية الفريدة، وذلك لأن عَقائِدَ أهل الكفر، بما أنها تُؤَسَّسُ على الظنِّ والهوى، كما قال تعالى: ﴿...إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ...﴾ [النجم: ٢٣]، فلا ثَبَاتَ له ولا رسوخَ، إذْ ما يُبْنى على الظن دون اليقين فلا يَثْبُتُ، وما يُبنى على الهوى، يتقلّبُ تقلّب الرِّيشة في مَهَبِّ الريح.

السادسة: الإِيمان في حالة الإحْتضار، لا يُعْتَدُّ به ولا يَنْفَعُ صاحِبَهُ:

كما قال سبحانه وتعالى عن موقف فرعون وهو في حالة الموت والإحتضار غَرَقاً في البحر: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس]، واللاّفِتُ أنَّ فرعونَ لم يكتف بقوله: [﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾]، بلْ أضاف إليه جملة: [﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾]، وهذا دليل على أن كون الإنسان مسلماً أرفع شأناً من كونه مؤمناً فقط، ومعلومٌ أن الإسلامَ مشتملٌ على الإيمان، والإيمان مستلْزمٌ للإسلام، كما بيناه في السابق.

أجَلْ إن فرعون أعلن عن إيمانه بل وإسلامه كذلك، عندما أدركهُ الغَرَقُ! ولكن هل نفعه ذلك الإيمانُ، أو ذلك الإعلانُ عن الإيمان؟! كلاّ، لأنه لم يكن في تلك الحالة مختاراً وآملاً في الحياة، كي يُعْتَدَّ بإيمانه أو إعلانه للإيمان، بل كان مُضْطَرّاً يائساً من الحياة، ومُعايِناً للموت وأسبابه، ولهذا أجابه الله تعالى بقوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس].

والهمزة في قوله تعالى (آلآنَ) همزة الإستفهام الإنكاري، حيث أنكر الله تعالى قولَ فرعون وإقرارَهُ المضطَّر اليائس، وَرَفَضَهُ، ثم قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس]، وقد تحقَّق قولُ الله تبارك وتعالى، إذْ حَنَّطَ المصريون كعادتهم مع جنائز ملوكهم، جَسَدَ فرعون (خوفو) ولا يزال جَسَدُهُ محنَّطا ومحفوظاً في متاحف مصر، وهذا إعجازٌ خَبَرِيٌّ، كما سَنَتَحدَّث عنه في الفصل الثالث من هذا الباب ـ أي الكتاب الخامس من هذه الموسوعة ـ.

السابعة: وكذلك لا ينفع الإِيمانُ صاحِبَهُ، عندما يؤمن بعد رؤية علامات الساعة:

كما قال تبارك وتعالى:

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾ [الأنعام].

ذكر الله في هذه الآية، ثلاث حالات:

١ ـ مجيءُ الملائكة: والظاهر أن المقصود بمجيء الملائكة، هو مجيؤهم لقبض الروح من الجسد، أي: هي حالة الإِحتضار التي يشاهد فيها المُشْرِفُ على الموت، الملائكةَ الكرام، وقد ذكرنا من قبل أن الإِيمان في تلك الحالة، عديم الجدوى لعدم وجود الإختيار.

٢ ـ مجيء الرَّب تبارك وتعالى: والمقصود هو مَجيؤهُ سبحانه يوم القيامة ـ مجيئاً يليق به للحساب والجزاء ـ كما قال جلَّ شأنهُ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠﴾ [الزمر].

٣ ـ مجيء بعض آيات الربِّ العظيم: والمقصود بمجيء بعض آيات الله هو مجيء أشراط (علامات) الساعة الكبرى، وهناك أيضاً لا ينتفع الإنسان الكافر بإيمانه الإضطراريِّ، وقوله تعالى: ﴿... أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ ...﴾ [الأنعام: ١٥٨]، دليلٌ قويٌّ آخر، على أنَّ الإيمانَ الذي لا يُثْمِرُ في صاحبه ثِمارَهُ وآثارَه المفروضة شرعاً، وبتعبير آخر: الإيمانُ الخاص الذي لا يُثْمِرُ الإيمان العام، عديمُ النَّفْع والجدوى لصاحبه، وأن مثله في ذلك مِثْلَ الإيمان الإضطراري

عند الإحتضار أو عند مجيء أشراط الساعة[١].

وهنا نختم الفصل الأخير من هذا الكتاب، والذي خصَّصْناه لتعريف الإيمان والمؤمن والمسلم، وثمار الإيمان الدنيوية والأخروية، وسنذكر بتوفيق الله في الباب الرَّابع، (أي الكتاب الثاني عشر) كُلاً من نواقض الإيمان ونواقض الإسلام، والحَدَّ الفاصل بين الإيمان والكفر، والإسلام والرِّدة، وما يتعلَّق بذلك من أحكام.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) سنتحدَّث عن هذا الموضوع بتفصيل أكثر، في الفصل السادس من هذا الباب بإذن الله تعالى (أي في الكتاب الثامن من هذه الموسوعة).

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المبحث الثالث: المؤمنون هم الذين لا يعرف الريبُ الطريقَ إلى إيمانهم اليقيني بالله ورسوله، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله	٤٩
المبحث الرابع: المؤمنون هم الذين لديهم الإستعداد المطلق لمعرفة أحكام الله وقبولها، ثم الإلتزام بها وتنفيذها	٥١
المبحث الخامس: المؤمنون هم الذين بالإضافة إلى الإيمان بالله ورسوله، يلتزمون بأوامر القيادة دَوْماً، وخاصةً في الُمِلمّات وعند الحوادث الجسام:	٥٢
المبحث السادس: المؤمنون هم الذين لا يتحاكمون لحلّ مشكلاتهم ومنازعاتهم إلّا إلى شريعة الله، ثم يتقبّلون حكم الشرع أياً كان، ويرضونه ويرضخون له	٥٤
المبحث السابع: المؤمنون هم الذين يُحَقِّقون فيما بينهم الأُخُوَّة	٥٦
الفصل الثالث: ما هو الكفر؟	٥٩
المبحث الأول: الكفر عَمَلٌ يقوم به الإنسان الكافر بإرادته الحرة التي أعطاه الله إياها:	٦٥
المبحث الثاني: الكفر نقيض الإيمان وعكسه، لِذا فمن اتصف بأحدهما خلا مِنَ الآخر	٦٦
المبحث الثالث: محل الكفر في كيان الإنسان هو القلب، مثله في ذلك مثل الإيمان	٦٧
المبحث الرابع: كلٌّ من الجهل والجحود والشك والظن والريب، جذور الكفر المرتبطة بالعقل	٦٨
المبحث الخامس: كذلك كلّ من الإسْتِكبار والإِباءِ والإشمئزاز من ذكر الله، وحبّ غير الله مثل حبّ الله، وكراهية دينه وسُوءُ الظن به، جذور قلبية للكفر	٧١
المبحث السادس: تجسَّد الجذور العقلية والقلبية للكفر في التكذيب	٧٣
المبحث السابع: أنواع الكفر الظاهرة على اللسان	٧٤
المبحث الثامن: كفر التولّي والإعراض	٧٥

الموضوع	الصفحة

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑